برتراند رسل

السلطة والفرد



منشورات الجمل

برتراند رسل: **السلطة والفرد**

برتراند رسل

السلطة والفرد

ترجمة وتقديم:
د. نوري جعفر

منشورات الجمل

برتراند رسل: **السلطة والفرد**، ترجمة وتقديم: د. نوري جعفر،
الطبعة الأولى

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

المقدّمة

برتراند رسل: حياته وفلسفته

أود في هذه المقدمة أن أقدم مؤلف هذا الكتاب إلى القارئ. غير أني بتقديمي برتراند رسل، وهو معروف في الأوساط العالمية كافة تقريباً، قد أكون كناقل التمر إلى هجر. ولكن عذري في هذا، إذا كان الأمر يحتاج إلى اعتذار، هو أن كثيراً من القُراء قد لا تتعدى معرفتهم لبرتراند رسل الاطلاع على نتف مبعثرة من فلسفته. وعلى هذا فسأحاول في كلمتي هذه أن أقدم للقارئ صورة قلمية لهذه الشخصية العلمية الفذة هذا مع العلم بأني أعتقد بأن القارئ يشاركني القول بأن الكتابة عن رسل لا تكون وافية بالمرام إذا ما اقتصرت على عدد من الصفحات. فقد كتبت (عن حياة المؤلف وعن فلسفته) مجلدات. ولكي تعبر كلمتي هذه عن أهم ما ينبغي أن يعرفه القارئ عن برتراند رسل حاولت أن أجعلها مختصرة ومركزة.

وُلِدَ برتراند رسل (الفيلسوف الإنكليزي المعاصر) في ١٨ مايس عام ١٨٧٢. وقد توفيت والدته بعد ولادته بعامين وتوفي أبوه بعد ولادته بثلاث سنين. وقد تربى في بيت جده وجدته.

وكان عمر جده (اللورد جون رسل) آنذاك ٨٣ عاماً، وقد توفي بعد ذلك بسنتين. أما جدته فكانت قوية في بنيتها الجسمية وفي تكوينها الخُلقي. وكانت على اتصال مباشر بهذا الطفل فتركت في سلوكه آثاراً كبيرة. وكان أبوه من السياسيين المتطرفين (بالنسبة للزمن الذي عاش فيه) في آرائهم السياسية وفي مناهجهم الاجتماعية. فأعلن، وهو في سن العشرين، خروجه على المسيحية وترك الذهاب إلى الكنيسة تماماً. وقد تأثر كثيراً بكتابات جون ستورت مل حول حرية الانتخابات وحق المرأة في مشاركة الرجل في نشاطه العلمي والاجتماعي. وقبل أن نواصل بحثنا عن برتراند رسل مباشرة نرغب في الوقوف قليلاً عند وصف حالة المرأة في العهد الذي عاش فيه والده. إن ذلك قد يكشف لنا بعض أسباب فشله السياسي آنذاك.

ليس هناك على ما نظن موضوع من الموضوعات الاجتماعية التي تمس حياة الإنسان مساً عميقاً أكثر طرافة من موضوع المرأة ومنزلتها في المجتمع. إن أهمية هذا الموضوع لا تقل بنظرنا عن طرافته. كانت المرأة ولا تزال من وجهة نظر الرجل أو من وجهة بعض الرجال على الأقل، لغزاً من الألغاز العويصة. ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن المرأة لم تدرس نفسها بنفسها دراسة جدية بل تعرضت لرحمة الرجل في هذا الباب. والرجل في بحثه عن المرأة لا يعبّر عن المرأة كما هي وإنما يعبّر عنها كما يراها. ولا تتوقف حتى الرؤية البصرية للأشياء المادية على سلامة عيني الناظر وإنما تتعداها إلى المكان الذي ينظر منه المرء إلى الشيء وإلى النقاط التي يركّز فيها نظره. ويتعقد الأمر كثيراً

عندما ننتقل إلى البحث عن الرؤية المتعلقة بالأمور المعنوية وتفسيرها والحكم على قيمها. لقد صبغت معظم الدراسات التي قام بها الرجال فيما يتعلق بالنساء بصبغة أدبية شعرية للخيال نصيب كبير فيها. لقد وقفت التقاليد الاجتماعية والمعتقدات الدينية والتشريع موقفاً متحيزاً ضد المرأة. فالبرغم من مشاركة المرأة للرجل في كفاحه ضد الطبيعة فإنها لم تشاركه مشاركة عادلة في التمتع بخيرات الطبيعة ومنتجاتها ـ إذ سلبها المجتمع عن طريق قوانينه كثيراً من حقوقها وامتيازاتها ـ ومنزلة المرأة في المجتمع البريطاني قبيل العهد الذي عاش فيه جون ستورت مل لم تكن محمودة. إذ اعتبرت بنظر بعض الناس كأنها قطعة من الآثاث البيتية يتصرف بها الرجل كيفما شاء، وبيعت في الأسواق كما تُباع الحيوانات. كان البائعون يجلبون النساء وفي أعناقهن الحبال إلى محلات بيع الماشية. وبلغ ثمن أغلاهن خمسين شلناً. وقد بيعت أرخص امرأة في بوكهام سنة ١٧٩٠ بستة بنسات وكثيراً ما كان يخصم ثمن الحبل الذي يربط عنق المرأة من ثمن بيعها الزهيد. وغالباً ما كان يعلن للناس في الصحف المحلية عن مثل ذلك البيع. ومن أطرف ما يروى في هذا الصدد أن رجلاً أعلن في أحدى الصحف عن ضياع حصان له وأظهر استعداده بأن يدفع لمن يعثر عليه مبلغاً قدره خمسة جنيهات وقد صادف أن ظلت زوج ذلك الرجل سبيلها فلم تعد إلى البيت في وقتها المعتاد مما اضطره أن يعلن عن ذلك التخلف في الصحيفة نفسها واضعاً جائزة قدرها أربعة شلنات لمن يعثر على الزوج المفقودة. فلا غرابة، والحالة هذه، ألاّ يكون الرأي العام بجانب المدافعين

عن حقوق المرأة آنذاك. وهكذا خسر رسل الوالد المعركة الانتخابية واتهم بتطرفه في القضايا الاجتماعية.

لقد وجد برتراند غذاء عقلياً في كثير من الكتب التي عثر عليها في مكتبة جده القيمة. وكان ولعه شديداً في مطالعة كتب الرياضيات. فأقبل وهو في سن الحادية عشرة، على دراسة هندسة إقليدس. وقد دفعه ميله إلى التزود من الرياضيات إلى دخول جامعة كمبرج (وكان عمره آنذاك ثمانية عشرة سنة). فاتصل بكثير من قادة الفكر في هذا المعهد العلمي الكبير وفي مقدمتهم الفيلسوف الإنكليزي الكبير ألفرد نورث هواينهيد والفيلسوف (الهيغلي) المعروف ماكتا كارت والعالم الرياضي الكبير سانجر والفيلسوف (الواقعي) سدويك والفيلسوف جمس ورد (من أتباع كانت) وستوت وغيرهم. ترك رسل جامعة كمبرج سنة ١٨٩٤ وعيّن ملحقاً فخرياً في السفارة البريطانية بباريس. غير إنه اعتزل منصبه في أواخر ذلك العام فزار برلين ثم حضر المؤتمر الفلسفي العالمي الذي عقد في باريس بعد ذلك ببضعة شهور.

تزوج رسل يافعاً. ولكنه اضطر إلى طلاق زوجته ـ بعد زواجه بعدد من السنين ـ لعقمها. فتزوج للمرة الثانية زوجة أنجبت له طفلين. ولكنه طلقها ـ لأسباب غير معروفة ـ في عام ١٩٣٥ وتزوج للمرة الثالثة سنة ١٩٣٦.

برنراند رسل من الشخصيات العلمية العالمية. ساهم في كثير من أوجه النشاط العلمي في الوقت الحاضر. فكتب في الفلسفة وفي الرياضيات وفي المنطق وفي علم النفس وفي التربية

وفي علم السياسة وفي الاجتماع. وقد حصل نتيجة لبحوثه القيمة في المواضيع الآنفة الذكر، على كثير من درجات الشرف والأوسمة العلمية. وهو شخص لا يميل إلى الالتجاء إلى الحرب لحل المشاكل الدولية المعقدة، بل يدعو إلى استعمال المناقشات العلمية والأسلوب الديموقراطي. وقد آلمته ويلات الحرب العالمية الأولى فكتب (قبيل انتهائها) ما يشعر القارئ (حسب رأي السلطات البريطانية آنذاك) بأنه ينبغي الكف عن القتال. فزج في السجن لمدة ثلاث أشهر، وكتب (وهو في السجن) كتابه الخالد «مقدمة في الرياضيات».

وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٤٠ عُيّن برتراند رسل أستاذاً (لمدة ثمانية عشر شهراً) في كلية مدينة نيويورك لتدريس المواضيع الآتية في الصفين الأول والثاني: (١) المنطق وعلاقته بالعلم وبالفلسفة والرياضيات، (٢) فلسفة الرياضيات، (٣) العلوم النظرية وعلاقتها بالعلوم التطبيقية. وكلية مدينة نيويورك واحدة من كليات أربع أهلية غرضها تربية أبناء سكان نيويورك وبناتهم تربية عالية. تقبل هذه الكلية في قسمها النهاري البنين فقط ولا تسمح للبنات بالدخول. أما الكليات الأخرى الثلاث فهي: (١) كلية بروكلن، (٢) كلية الملكة (وهاتان الكليتان تسمحان لكل من البنات والأولاد في الدخول). (٣) كلية هنتر (وهي للبنات فقط). وبعد تعيين برتراند رسل بعدد من الأسابيع تصدت سيدة من محلة بروكلن وأحد رجال الدين إلى اتهامه بالخروج على الآداب العامة وطعنا بصحة تعيينه. فتقرر إلغاء العقد بينه وبين إدارة الكلية ولم يسمح له بالتدريس فيها. وقد استشهدت السيدة وزميلها بفقرات

من كتاب ألفه برتراند رسل عام ١٩٢٩ وعنوانه «الزواج وصلته بالأخلاق».

تبنى برتراند رسل أكثر من فلسفة واحدة. فقد بدأ من أنصار كانت ثم نبذه سنة ١٨٩٨ فأصبح من أتباع هيغل. غير أنه خرج على فلسفة هيغل في مفتتح هذا القرن وأصبح واقعياً بالمعنى الفلسفي الذي جاء به جون لوك. إلاّ أنه قبل بضع سنوات أعلن بأنه من أنصار المدرسة الفلسفية الحديثة المسماة Logical Posicitism وخلاصتها أن الفلسفة والعلم شيء واحد. ويتكون العلم ـ بنظره ـ من الرياضيات والمنطق فقط أما سائر فروع المعرفة الأخرى فعلوم تقريبية أقل ضبطاً من الرياضيات والمنطق. وقد بيّن رسل هذا الرأي بعد خروجه على المذهب الواقعي في الفلسفة في كتاباته العلمية الأخيرة ـ خاصة كتابيه المسمى أولهما «بحث في المعنى والحقيقة» وثانيهما «المعرفة الإنسانية ـ مداها وحدودها» الذي تمّ طبعه في العام الماضي. من هذا نرى أن رسل لا يعتبر حتى الفيزياء أو الكيمياء علوماً بالمعنى المضبوطة بله الفيزيولوجي والبايولوجي والموضوعات الاجتماعية كالتأريخ وعلم النفس وما شاكلها. وحجته في ذلك بأن العلم مجموعة من الحقائق الثابتة وغير المتغيّرة بتغيّر الزمان. فالمعادلة ٢+٢ مثلاً تساوي ٤ بنظره في كل زمان مكان ـ في العراق والهند وفي روسية السوفيتية وفي الولايات المتحدة الأمريكية. على وجه الأرض وفي القمر والشمس (إذا جاز أن يكون هناك من يتعاطى بالرياضيات). وجل ما يحدث من الاختلاف بين الناس في هذه المسألة متعلق بطبيعة التعبير اللغوي والتسمية وشكل الرموز

الرياضية لا أكثر ولا أقل. وقل الشيء نفسه (كما يقول رسل) عن المعادلة المنطقية ـ كل كائن حيّ فان ـ وزيد كائن حيّ. فهو إذن فان.

لقد فات برتراند رسل، مع الأسف الشديد، بأن ثبات القوانين الرياضية والمنطقية إنما هو شيء نسبي لا مطلق. وإن القوانين العلمية (حتى الرياضية منها) إنما هي قوانين نسبية في مجالات معيّنة لا تتعداها. فالمعادلة ٢+٢ لا تساوي ٤ في جميع الحالات. إذ أن حجمين من الكحول + حجمين من الماء لا تساوي أربعة حجوم مخلوطة لأن المساحة التي تشغلها جزيئات أحد هذين السائلين تعتمد على مدى تقارب جزيئات ذلك السائل. وعند خلط سائلين يختلف مدى تقارب جزيئات أحدهما عنه في السائل الآخر! تنفذ جزيئات السائل (الذي تكون جزيئاته أكثر تقارباً) من بين الفراغات النسبية الموجودة بين جزيئات السائل الآخر. وتكون النتيجة مثل مزج عدد من البرتقال مع عدد من الرقي حيث ينفذ البرتقال من بين الفراغات الحاصلة بين الرقي. وبعض البديهيات المعروفة في الهندسة الأقليدية المستوية قد برهن كثير من العلماء بأن صحتها ليست مطلقة تصدق في جميع الأحوال وتحت الظروف كافة وإنما هي فرضيات نسبية يمكن الاستعاضة عنها بفرضيات نسبية أخرى تعمل تحت ظروف معيّنة. فالقول الذي ذهب على ألسنة بعض الناس مذهب الأمثال بأنه لا يمكن إمرار أكثر من مواز واحد لمستقيم من نقطة خارجة عنه مبني على منطق هندسي فرضي معيّن يعمل ضمن حدود معيّنة. وعلى هذا الأساس برهن الرياضي الروسي الشهير لوبو

كيفسكي عام ١٨٢٦ بأنه يمكن إمرار عدد غير متناه من المتوازيات لمستقيم من نقطة خارجة عنه. وجرياً على المنطق نفسه فرض الرياضي الألماني البتي بأنه لا يمكن إمرار ولا مواز واحد لخط مستقيم من نقطة خارجة عنه. وقد أدى قول البتي هذا إلى تغيير جوهري في نظرة الإنسان إلى الكون كما يراه آنشتين وغيره من العلماء. وأصبحت لدينا ثلاث هندسات بدلاً من هندسة واحدة لكل منها منطقها وفرضياتها ومجالها النسبي الذي تعمل فيه.

برتراند رسل من الكُتّاب المكثرين. كتب في السياسة وفي علم النفس وفي المنطق وفي الفلسفة وعلم الاجتماع. وهو يكتب باللغتين الألمانية والفرنسية بجانب كتاباته في اللغة الإنكليزية. ظهرت أولى مقالاته عام ١٨٩٥ ـ عندما كان عمره ثلاثاً وعشرين سنة. وقد كتب بين عامي ١٨٩٥ و١٩٤٩ حوالي خمسمائة مقالة في مختلف المواضيع وفي أكثر من لغة واحدة. وأخرج في المدة نفسها خمسة وعشرين كتاباً أشهرها:

١ ـ أسس الرياضيات، تم طبعه عام ١٩٠٣.

٢ ـ أسس الرياضيات (مع هوايتهيد) وتمّ طبعه عام ١٩١٠.

٣ ـ مشاكل الفلسفة وتم طبعه عام ١٩١٢.

٤ ـ معرفتنا للعالم الخارجي وتم طبعه عام ١٩١٤.

٥ ـ أسس التنظيم الاجتماعي وتم طبعه عام ١٩١٧.

٦ ـ الصوفية والمنطق وتم طبعه عام ١٩١٨.

٧ ـ تحليل العقل وتم طبعه عام ١٩٢١.

٨ ـ مبادئ النظرية النسبية وتم طبعه عام ١٩٢٥.

٩ ـ تحليل المادة وتم طبعه عام ١٩٢٧.

١٠ ـ الزواج والخلق وتم طبعه عام ١٩٢٩.

١١ ـ التربية والنظام الاجتماعي وتم طبعه عام ١٩٣٢.

١٢ ـ الحرية والتنظيم وتم طبعه عام ١٩٣٤.

١٣ ـ القوة وتم طبعه عام ١٩٣٨.

١٤ ـ تحقيق في المعنى والحقيقة وتم طبعه عام ١٩٤٠.

١٥ ـ تأريخ الفلسفة الغربية وتم طبعه عام ١٩٤٥.

١٦ ـ المعرفة الإنسانية وتم طبعه عام ١٩٤٨.

١٧ ـ الهيمنة الاجتماعية وعلاقاتها بحرية الفرد وتم طبعه عام ١٩٤٩.

١٨ ـ مقالات في الأدب والحياة ١٩٥٠.

والكتاب الذي نضع ترجمته بين يدي القارئ يتضمن محاولة التوفيق بين الحرية الفردية وبين التنظيم الاجتماعي. لقد انقسم المفكرون وعلماء الاجتماع، حول التنظيم الاجتماعي وعلاقته بحرية الفرد، إلى قسمين متعارضين أشد التعارض. يرى الفريق الأول بأن الحرية لا تتحقق على وجهها الأكمل إلاّ إذا تمتع الفرد بحقوقه وامتيازاته كافة ويتم ذلك التمتع كاملاً عن طريق تقلص ظل الحكومة تقلصاً كبيراً ـ إذ تعتبر الدولة والمنظمات السياسية والاجتماعية وسائل لخدمة الفرد لا غايات يخدمها الفرد. ومن أشهر دعاة هذا المذهب، وهم كثيرون، مونتسكيو وروسو

وفولتير في فرنسة، وجون ستورت مل وآدم سمث وجرمي بنثام في إنكلترا، وتوماس جفرسن والرئيس هوفر في الولايات المتحدة الأمريكية. ويرى الفريق الآخر من المفكرين بأن الحرية لا تتم إلاّ عن طريق الخضوع للدولة. ويعتبر هذا الفريق من الكُتّاب الأفراد وسائل لتحقيق المُثُل العليا التي تسعى الدولة إلى تحقيقها. ولا يصبح الفرد بنظرهم إنساناً بالمعنى المراد إلاّ إذا انضوى تحت لواء دولة معيّنة. ومن أشهر دُعاة هذا المبدأ من القدامى، شيخ الفلاسفة أفلاطون، ومن المحدثين هيغل وشبنغلر وروزنبرغ في ألمانيا وكروتشى وجنتيلي وموسوليني في إيطاليا. والكُتّاب الذين يؤمنون بالمذهب الدكتاتوري كافة.

ويستطيع الباحث المتعمق في كلتا المدرستين السالفين الذكر أن يستنتج بأن في كلتيهما خطأ مشتركاً. ذلك أنهما نظرتا للأمر من طرف واحد وأغفلتا طرفه الآخر إغفالاً تامّاً. فقد اعتبرنا كلاً من الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي شيئين متناقضين. وعد أنصار الحرية الفردية، وهم دعاة المدرسة الأولى، تدخل الحكومة في شؤون الأفراد اعتداءاً على حرياتهم. بينما خالفهم دعاة التنظيم الحكومي، وهم أنصار المدرسة الثانية، واعتبروا الحرية الفردية خروجاً على النظام ونقضاً لمبدأ الحرية نفسه. ويرجع سبب ذلك، من الوجهة النفسية، على ما نظن، إلى أن الإنسان عادة، لا سيما المفكرين من بنيه، يميل إلى اعتبار الحرية الفردية شيئاً أساسياً في الحياة حينما يرى الدولة تتدخل لعرقلة تحقيق تلك الحرية تدخلاً لا يرى له من مبرر. وتنعكس الآية عندما يرى الإنسان الحرية الفردية تأخذ شكلاً بعيداً عن التنظيم

وعن المصلحة العامة، كما يراها، فيدعو إلى وضع القيود التي يراها ملائمة لتحديد حرية الأفراد كي يسود بنظره، القانون والنظام.

والأوضاع السياسية التي عاش فيها المفكرون الذين ذكرنا أسماءهم توضح لنا هذا الأمر توضيحاً جلياً. فقد عاش الفريق الأول، أي دعاة الحرية الفردية ونبذ تدخل الحكومة في شؤون الأفراد، وفي ظروف سياسية كان تدخل الحكومة في شؤون الأفراد أثناءها عنيفاً صعب الاحتمال مما دفع هؤلاء المفكرين إلى الدعوة إلى تقلص ظل الحكومة وإطلاق حرية الناس، بينما عاش دعاة التنظيم الحكومي، وهم أنصار المدرسة الثانية في ظروف سياسية ضؤل فيها نفوذ الحكومة فخيل لهم بأن تمتع الأفراد بالحرية التي تمتعوا بها إنما هو نوع من الفوضى وفقدان النظام فدعوا إلى عكسه. لقد انبرى كل من فولتير وروسو، حينما ساءهما كثيراً تدخل الكنيسة والدولة في التضييق على حرية الأفراد، إلى مهاجمة التنظيم الاجتماعي الذي ساء في زمانهما، مهاجمة عنيفة ومهدا السبيل لقيام الثورة الفرنسية. وحمل بنثام وجون ستيورت مل وآدم سمث حملات صارمة على تدخل الدولة في أمر حرية الأفراد السياسية الاقتصادية ونادى كل منهم بوجوب رفع الحواجز التي وضعها المجتمع، عن طريق قوانينه، كي يصبح الأفراد أحراراً لا أرقاء. وقد عرف مذهبهم في السياسة والاقتصاد بالمذهب الفردي. بينما آلم حكم الجماهير بالقتل على سُقراط، حكيم اليونان، تلميذه الوفي أفلاطون فنفر من الحرية الفردية، كما كانت شائعة في زمنه، ودعا إلى ضدها. كما أتعب

هيغل وشبنغلر وروزنبرغ فقدان التنظيم الحكومي في ألمانيا في الفترة التي عاشوا أثناءها، مما أفقدها، على رأيهم، القدرة على تأدية رسالتها التاريخية للعالم، فنادوا بوجوب القضاء على حرية الأفراد، ويصدق الشيء نفسه فيما يتعلق بكروتشي وجنتيلي وموسوليني.

وفي المدرستين، بالإضافة إلى ذلك، نقص مشترك آخر، هو أن كلاً منهما، بمحاولتها التخلص من بعض القيود التي شاهدها دعاتها في المجتمع الذي عاشوا فيه تطرفت تطرفاً لا مبرر له فوقعت في خطأ فظيع. فالتنظيم الاجتماعي لا يكون تنظيماً مثمراً إلاّ إذا رافقته حرية فردية. والحرية الفردية شيء والدعوة للقضاء على التنظيم السياسي شيء آخر. كما أن الإيمان بضرورة التنظيم الاجتماعي للقضاء على الفوضى شيء آخر كذلك. إننا نعتقد بأن نقطة الضعف الأساسية. عند دعاة كل من المدرستين، تعود إلى تفسير معنى كلمة الحرية، فالحرية وإن كانت كلمة واحدة إلاّ أنها ذات معان عديدة لا تختلف عند الأفراد في المجتمع الواحد فحسب بل وعند الفرد نفسه في أوقات مختلفة. ولعل الاختلاف في تفسير معنى الحرية هو الذي أعطاها هذا الحب السحري عند كثير من الأفراد والجماعات. فما هي الحرية، إذن؟ ولماذا يرغب الناس فيها؟ هل إن الإنسان يرث الميل للحرية كما يرث صفاته الفيزيولوجية والبايولوجية؟ أم أن الحرية شيء مكتسب يأتي من البيئة التي يعيش فيها الإنسان؟ هل الحرية غاية في حد ذاتها؟ أم أنها وسيلة لتحقيق غايات أخرى خارجة عنها؟ هل يصاحب الحرية شعور بالمسؤولية؟ أم أن

الحرية هي أن يعمل المرء ما يشاء؟ هل تعني الحرية التحرر من جميع القيود؟ أم أنها تقتصر على التغلب على بعض القيود تحت ظروف سياسية واقتصادية معيّنة؟ وإذا كانت الحرية تعني التحرر من بعض القيود فهل يزول الميل إلى الحرية عند زوال تلك القيود؟

الحق أن تلمس الإجابة المقنعة على هذه الأسئلة ليس سهلاً. وإن الفرد، لكي يحاول أن يجيب عليها إجابة مثمرة ينبغي له أن يلم بعلم النفس، فيما يتعلق بمعرفة الطبيعة البشرية، وفي علم الاجتماع فيما يتعلق بمعرفة القوى الاجتماعية التي يخضع الفرد لها فتتعدل طبيعته وسلوكه. أنني شخصياً أميل إلى الاعتقاد، وربما كنت غير محق، بأن للحرية شيء مكتسب لا علاقة للوراثة، بمعناها البايولوجي، بها. أي أن المرء يكتسب الحرية اكتساباً من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها. وإن الحرية، بنظري، وسيلة لا غاية بحد ذاتها. أي أن الإنسان عن طريق تمتعه بالحرية، يسعى لتحقيق غايات خارجة عنها. ثم إن الحرية ينبغي أن يصاحبها شعور بالمسؤولية وإلاَّ انقلبت إلى فوضى وفقدت أهميتها من الناحيتين الاجتماعية والفردية. وإذا سلمنا بأن الحرية شيء مكتسب، يتلقفه المرء من بيئته الاجتماعية كما يتلقف عاداته وعقائده في الدين والاجتماع. جاز لنا القول بأن تحقيقها لا يتم إلاَّ عن طريق التنظيم الاجتماعي والتشريع السياسي. وهذا يعني أن المرء يكتسب حريته بواسطة تدخل الحكومات في تعيين ما له من حقوق وما عليه من واجبات. غير أن تدخل الحكومة في تعيين حقوق الأفراد وواجباتهم، كثيراً ما

يتمّ بشكل يحدد حريات الأفراد ويقلصها إن لم يقضِ عليها. والمشكلة الكبرى التي ينبغي مواجهتها عند بحث تدخل الحكومة في تعيين ما للفرد وما عليه هي نوع ذلك التدخل ومداه. أي كيف تتدخل الحكومة تدخلاً معقولاً في هذا الصدد فلا تترك الحبل على الغارب للأفراد يعملون ما يشاؤون تحت ستار الحرية؟ وفي الوقت نفسه لا تضغط على الحرية فتصادرها تحت ستار التنظيم الاجتماعي والقضاء على الفوضى؟ هذه مشكلة اجتماعية عويصة تواجهها، بدرجات مختلفة، جميع الدول المعاصرة وقد أعيا حلها كثيراً من الساسة والمشرعين. وقبل أن نقترح ما نراه مناسباً لعلاجها نعود مرة أخرى لبحث الحرية بمعناها الاجتماعي.

تعني الحرية، من الناحية الاجتماعية، توزيع علاقات أفراد مجتمع من المجتمعات في وقت ومكان معينين، أي أن الحرية تغيير في حصص الأفراد والجماعات التي تكون ذلك المجتمع. ولا ينبغي أن يستغرب القارئ قولنا بإن الحرية في ما لا يستطيع المرء عمله في وقت معيّن وفي زمن خاص. ذلك لأن عدم استطاعة شخص ما، من الناحية الاجتماعية، أن يقوم بعمل معيّن تعني فسح المجال لغيره كي يقوم بذلك العمل أو بعمل معيّن آخر تحت ظروف خاصة، حسب منطق مبدأ توزيع الحصص الذي ألمعنا إليه. وعلى هذا الأساس، لكي نعرف حرية مجتمع من المجتمعات ينبغي ألا ننظر إلى ما يستطيع بعض الناس أن يفعلوه فقط بل وإلى ما لا يستطيعون أن يفعلوه كذلك.

يعيش أفراد المجتمع، معتمدين على بعضهم البعض اعتماداً

كبيراً. وكلما ارتقى المجتمع سلم التطور ازدادت درجة ذلك الاعتماد وأصبحت أعمال الفرد وآراؤه ذات أثر كبير على غيره من الأفراد. فحرية الفرد في القول وفي العمل متعلقة بحرية غيره أشد التعلق. وإذا وقفت وقتياً، حرية فرد معيّن في محل ما، تحت ظروف معيّنة، فإن ذلك يعني بدء تحرك حرية الفرد آخر أو أفراد آخرين وهكذا. وعلى هذا الأساس لا ينبغي البحث عن حرية فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات البشرية دون النظر إلى حرية الأفراد الآخرين والجماعات التي تشارك ذلك الفرد أو تلك الجماعة حياتها. ولما كانت مصالح الناس متشابكة، تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح، لا بد للحكومة من أن تقوم بقسطها في تنظيم توزيع علاقات الأفراد تجنباً لاصطدام بعض المصالح، ولا بدّ للأفراد كي يحافظوا على حرياتهم، أن يخضعوا للحكومة في هذا المضمار. والأفراد بخضوعهم للحكومة يحصلون على قسط من الحرية أكبر مما قد يصيبهم في حالة نفض الحكومة يدها من الاشتراك في عملية التوزيع. ولكن أفراد الحكومة، من الجهة الثانية. قد لا يترددون في إساءة استعمال سلطتهم فيقتلون الحرية تحت ستار الدفاع عنها، أي أن أفراد الحكومة، قد يصل غرامهم بالسلطة التي يمارسونها حداً يحبب لهم استعمال تلك السلطة للقضاء على أية حركة مهما كان الدافع لها ومهما كانت غاياتها.

لقد حاولنا، على القدر الذي سمحت به لنا إمكانياتنا العلمية واللغوية أن نُترجم ما يقصده المؤلف من المعاني دون أن نتقيد تقييداً كبيراً في الترجمة الحرفية لما يقول. وفي هذا النوع من

الترجمة شيء من التصرف في تغيير تركيب الجمل والعبارات . لقد كانت غايتنا من ذلك: أولاً؛ محاولة التعبير الدقيق عن معاني الجمل والعبارات لا ترجمتها الحرفية. وثانياً؛ تجنب الركة في الترجمة الحرفية الناتجة عن الاختلاف في تركيب الجمل وفي وسائل الربط بينها في اللغتين الإنكليزية والعربية. ولما كنا نختلف مع المؤلف في كثير من النقاط السايكولوجية والاجتماعية فقد ألمعنا إلى بعض تلك الاختلافات في معرض البحث عنها.

بغداد في ١/٤/١٩٥١.

المترجم

الفصل الأول

السلطة والفرد

إن المشكلة الأساسية التي سأحاول بحثها في الفصول الآتية هي كيفية إيجاد الصلة بين حرية الفرد التي هي أحدى مستلزمات التقدم وبين التعاون بين الأشخاص الآخرين الذي لا يستطيع الفرد بدونه أن يستمر على الحياة. سوف أحاول أن أبدأ دراستي هذه بعرض الدوافع الموروثة عند الإنسان، تلك الدوافع التي تجعل التعاون الاجتماعي بين الأفراد ممكناً. وعلى هذا سوف أتطرق إلى ماهية هذه الدوافع في المجتمعات البدائية أولاً ومن ثم أتطرق إلى التغيرات التي تطرأ على تلك الدوافع الموروثة نتيجة للتغير الاجتماعي الذي يحدث في المجتمعات المتمدنة. وبعد ذلك سألمع إلى التعاون الاجتماعي ونموه في أوقات مختلفة وأمكنة متغيّرة متتبعاً تطوره التأريخي حتى الوقت الحاضر ومشيراً إلى إمكانيات نموه في المستقبل غير البعيد. وبعد أن انتهي من مناقشة التعاون الاجتماعي سوف أتناول الجانب الآخر من حياة الإنسان في المجتمع ـ أي الحرية الفردية محاولاً تبيان الدور الذي لعبته في مختلف أوجه التطور الإنساني ومدى أثرها في المجتمع في الوقت الحاضر وإمكانيات نموها المستقبلة عند

الفرد وفي المجتمع. ومن ثم سأتناول إحدى المشاكل الكبرى في الوقت الحاضر: تلك هي مشكلة النزاع الذي تكوّن نتيجة للتقدم الصناعي بين التنظيم من جهة وبين طبيعة الإنسان من جهة أخرى. وبعبارة أخرى سأبحث خلو الدوافع الاقتصادية عند الفرد (أي دوافع التملك) من نواحي الإبداع. وبعد الفراغ من ذلك سأقترح ما أراه صالحاً لإيجاد حلّ لهذه المشكلة. وأخيراً سأتناول الناحية الخلقية من حيث أثرها في العلاقة بين تفكير الفرد ونشاطه من جهة وبين هيمنة المجتمع على الفرد من جهة أخرى.

إن التعاون الذي يؤدي إلى وحدة الجماعة مبني على أساس غريزي في جميع المخلوقات الاجتماعية ومن ضمنها الإنسان. وتتضح هذه الظاهرة كثيراً في النحل والنمل ـ تلك الحشرات التي لا يظهر على سلوكها ما يدعو إلا الاعتقاد بأنها لا تسلك سلوكاً اجتماعياً. إن ظاهرة السلوك الاجتماعي في سبيل المصلحة العامة عند هذه الحشرات لمما يدعو إلى العجب. غير أن ظاهرة التعاون هذه عند الحشرات لا تخلو من مساوئ. ذلك لأن النحل والنمل لا يهيء الظروف اللازمة لأفراده للإبداع الفني أو للاكتشافات العلمية أو لظهور التعاليم الدينية. أي أن حياتها الاجتماعية في الواقع إنما هي حياة ميكانيكية جامدة تسير دائماً على وتيرة واحدة. وعلى هذا فإننا نرغب في أن يكون في حياة الإنسان (بالإضافة إلى الناحية الاجتماعية) عنصر من عناصر الإبداع الفردي إذا ما رغبنا في التخلص من الركود الاجتماعي.

لقد كان الإنسان القديم ضعيفاً بالقياس إلى قوة بعض

الحيوانات التي عاصرته. وكان الأمل في استمراره على الحياة ضعيفاً كذلك. تحدر الإنسان، عند ظهوره على وجه البسيطة، من مخلوقات أقل تقدماً في سلم التطور. وكانت تلك المخلوقات تفتقر إلى أشياء كثيرة منها القدرة على استعمال اليدين بالشكل الذي يستعمله بهما الإنسان في الوقت الحاضر. لقد أدى تطور استعمال اليد الإنسانية إلى أن الإنسان لم يعد محتاجاً لأن يعيش في الغابات بل سكن في أماكن بعيدة عنها حيث يقل توفر الغذاء. وسبب ذلك هو احتياج الإنسان في مساحات من الأرض للسكنى أكثر مما تحتاجه سائر الحيوانات. ويقدر السر آرثر كيث المساحة التي احتاج إليها الفرد البدائي الواحد، لكي يؤمن ضرورات حياته المعاشية، بميلين مربعين من الأرض. ويذهب بعض الكتاب إلى أن الإنسان القديم احتاج إلى مساحة أكبر من تلك المساحة. وإذا ما حاولنا الاستدلال من حياة بعض القردة والمجتمعات البدائية المعاصرة لمعرفة حياة الإنسان القديم استطعنا أن نقول بأن الإنسان القديم كان يعيش في مجتمعات صغرى لا يتجاوز حجم كل منها (١٥٠) مائة وخمسين شخصاً. ويظهر بأن التعاون كان سائداً بين أفراد كل جماعة بقدر ما كان العداء مستحكماً بين الجماعات المختلفة خصوصاً عند اتصالها ببعضها. غير أن الاحتكاك بين الجماعات المختلفة كان نادراً آنذاك نظراً لقلة عدد أفراد النوع الإنساني فقد كان لكل جماعة حدودها الخاصة ولا يحدث الاحتكاك إلاّ حين خرق تلك الحدود. ويظهر بأن الزواج في تلك الأيام كان محصوراً ضمن حدود الجماعة ولا يتعداها إلى غيرها. وإذا حدث أن ازداد عدد

جماعة من الجماعات إلى الحد الذي لا تسمح به مساحة الأرض التي يسكنونها أصبح محتملاً أن يحدث نزاع بين تلك الجماعة وبين جماعة أخرى مجاورة لها. يؤدي هذا النزاع في العادة إلى تغلب الجماعة التي يفوق عدد أفرادها عدد أفراد الجماعة الأخرى. كل ذلك يحدثنا عنه السير آرثر كيث[١]. يتضح من ذلك بأن أسلافنا لم تكن أعمالهم موضوعة وفق خطط معيّنة أو مفكّر فيها. بل كانت تعتمد في العادة على عامل ذي وجهين أحدهما التعاون بين الفرد وبين أفراد الجماعة التي ينتمي إليها وثانيهما العداء المستحكم بين الجماعات المختلفة. ولما كانت المجتمعات البدائية صغيرة الحجم، كما ذكرنا، أصبح ميسوراً للأفراد أن يعرفوا بعضهم بعضاً مما سهل إمكانية التعاون بين هؤلاء الأفراد.

لقد كانت العائلة ولا زالت النواة الأساسية للحياة الاجتماعية. فقد حتّم طول أمد طفولة الإنسان، بالقياس إلى قصر أمدها في الحيوانات الأخرى، إيجاد العائلة. وكان ضعف المرأة فيما يختص بجمع الطعام عاملاً آخر في هذا الصدد. وقد أدى هذا بدوره «عند الإنسان وعند كثير من الطيور» إلى الاعتماد الكبير على رب البيت في الأمور المتعلقة بإعاشة العائلة. ونتج عن ذلك شيء من تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. كانت حصة المرأة، نتيجة له، إن اقتصر عملها على البيت والاعتناء بتربية

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى كتاب السير آرثر المسمى «مقالات في تطور الإنسان». (المترجم)

الطفل. لقد كان الانتقال من العائلة إلى القبيلة انتقالاً بيولوجياً نتج عن أن الصيد «وهو الوسيلة الأساسية للعيش في الماضي» كان أكثر نجاحاً عندما يشترك فيه أفراد كثيرون. وعليه فقد ازداد اتصال أفراد الجماعة ببعضهم كما ازداد تعاونهم. أدى ذلك بدوره إلى ازدياد قوة الجماعة في كفاحها ضد جماعات أخرى.

تكشف لنا بقايا الإنسان القديم، التي اكتشفت حديثاً، عن مراحل نمو الإنسان من الحالة التي تشبه حالة القردة إلى الحالة التي كان الإنسان فيها بدائياً. ولا يتجاوز عمر أكثر تلك البقايا المليون سنة. ولكن يظهر بأن ملايين السنين التي سبقت ذلك التأريخ لم تشهد للإنسان أي وجود على وجه الأرض. وإنما كانت هناك بعض القردة «وهي والإنسان القديم ترجع إلى أصل مشترك» تعيش فيها على الأرض لا على الأشجار. وكانت أهم ميزات الإنسان القديم هو حجم جمجمته الذي أخذ بالنمو حتى وصل إلى وضعه الحاضر. لقد تقدم الإنسان في معرفته تقدماً محسوساً طوال تلك الفترة. كما أنه تقدم كذلك في مهاراته الجسمية وتنظيماته الاجتماعية. ولم يتقدم على ما نظن في قواه العقلية الموروثة. أما التقدم البايولوجي البحت فقد بلغ نهايته منذ زمن بعيد كما يظهر من دراسة العظام. وعلى هذا يمكن أن يُقال بأن قوانا العقلية الموروثة لا تختلف كثيراً عن قوى الإنسان الذي عاش في الدور الحجري الأول بينما تغيّرت معارفنا كثيراً عما كانت عليه عند الإنسان القديم. يظهر بأن لنا غرائز مثل غرائز أسلافنا. تدفع هذه الغرائز الإنسان إلى العيش في مجموعات معيّنة تتنازع مع غيرها البقاء.

وقد اعتمدت التغيّرات التي حدثت منذ ذلك الحين على غريزة حب الجماعة من جهة وعلى الاهتمام بحفظ الذات من جهة أخرى. إن محاولة القضاء على بعض الغرائز الطبيعية فيما يختص بسلوك الأفراد كثيراً ما تؤدي إلى اضمحلال الحياة الاجتماعية ذلك لأن الطبيعة تحاول أن تأخذ ثأرها عن طريق إضعاف النوع أو إبادته.

ازدادت العلاقات الاجتماعية قوة عن طريق إثارة الخوف من الأعداء ذلك الخوف الذي بني على كل من الغريزة والتربية الاجتماعية. وقد ساعدت على ذلك قوى أخرى كثيرة. ففي المراحل الأولى لنمو الجنس الإنساني خضع الأفراد لسلطة الجماعة. وبمرور الزمن عبّر الناس عن ولائهم للجماعة بواسطة ولائهم لرئيسها. وكان رئيس الجماعة معروفاً عند أفراد جماعته وعند كثير من أفراد جماعته وعند كثير من أفراد الجماعات الأخرى. وقد سهلت هذه الطريقة ازدياد حجم الجماعة ولكنها لم تقضِ على غريزة الخوف. ونتج عن ذلك بالتدريج تغير آخر إذ تحولت الحروب في ذلك الوقت من حروب يحاول الغالب فيها إبادة المغلوب إلى حروب يستولي فيها الأول على الثاني. وأصبح المغلوب عبداً يستعمله الغالب لمآربه بعد أن كان معرضاً للتعذيب والفناء. وعلى هذا صارت المجتمعات مكوّنة من قسمين من الناس: أبناؤها الأصليون وهم عمادها، والناس المغلوبون على أمرهم. وخضع المغلوبون للغالبين عن طريق الخوف لا عن طريق الولاء الغريزي. فقد حكم البابليون مساحات شاسعة لا لأن سكان تلك الأراضي كانوا يشعرون بولاء

غريزي للبابليين بل لأنهم كانوا يخافون بطشهم. وقد أصبحت الحرب من الأيام الأولى حتى الوقت الحاضر الوسيلة الأساسية لامتداد نفوذ بعض المجتمعات على حساب البعض الآخر وأخذ الخوف من الغالب يحل محل الولاء الغريزي له. ولم يكن هذا التغيير مقصوراً على المجتمعات الكبيرة بل حدث في المجتمعات الصغيرة كذلك.

وقد نشأت أنواع جديدة من الولاء عندما أخذت المدنية تتطور. فظهر ولاء مبني على أساس وحدة العقيدة بغض النظر عن الجنس والفواصل الجغرافية. وقد لعب الدين دوراً فعّالاً في هذا المضمار. وبذلك أخذت قوة الولاء للعقيدة بالازدياد حتى أصبح الولاء للعقيدة الدينية مثلاً يفوق ولاء الشخص لأمته كما يتضح ذلك في أوروبا إبان القرن السادس عشر. أما في الوقت الحاضر فتنتشر على وجه البسيطة عقيدتان كل تحاول كسب ولاء الناس. تدعى إحداهما بالعقيدة الشيوعية ولها كثير من الاتباع الذين هم على أتم الاستعداد للدفاع عنها دفاعاً مشابهاً لدفاع حملة العقائد الدينية عن عقائدهم وكتبهم المقدسة. وتدعى العقيدة الثانية بالطريقة الأمريكية في الحياة وهي أقل وضوحاً من الشيوعية. فقد تكونت الولايات المتحدة عن طريق الهجرة من أقطار كثيرة وعلى هذا فهي تفتقر إلى الوحدة البايولوجية. ولكن الوحدة التي نشأت في الولايات المتحدة لا تقل قوة عن وحدة الأمم الأوروبية.

فقد وجد المهاجرون وأبناؤهم في الولايات المتحدة طريقة جديدة في الحياة تفضل ما ألفوه في العالم القديم لذلك فكروا أن

ينشروها في العالم. وعلى هذا فقد عمل الولاء للعقيدة في كل من الولايات المتحدة وروسيا على جمع الشمل فازدادت الأمة قوة وأصبح أبناؤهما يتوقون لنشر مبدئهم بين أفراد الأمم الأخرى.

لا زال الولاء للجماعات الكبيرة في الوقت الحاضر مبنياً على الأسس النفسية القديمة التي بنيت عليها المجتمعات الصغيرة. إذ لم تتغيّر طبيعة الإنسان الموروثة عما كانت عليه قبل آلاف السنين بالرغم من الأساليب التي تستعملها المدارس والأديان والدعاية والتنظيمات الاقتصادية لتغيير تلك الطبيعة(١). يميل الإنسان غريزياً(٢) إلى تقسيم البشرية إلى قسمين: أصدقاء

---

(١) نعتقد بأن هذا القول لا يخلو من المبالغة. وهو ليس صحيحاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق. الحق أن المجتمع يعدل كثيراً من الميول الفطرية عند الإنسان. ظليل الجنسي (أو الغريزة الجنسية كما يسميها الأستاذ رسل) لا تنتهي عند تطمين الرغبة الجنسية عند الإنسان، بل تتعدى ذلك إلى تكوين البيت وتربية الأطفال وتحديد العلاقة بين الزوجين وبين الأطفال ووالديهم (وهذه أمور اجتماعية تخضع لقوانين المجتمع). ولو كان العامل الحاسم في تحديد علاقة الأفراد هو الميل الفطري أو الغرائز (وهي متشابهة عند جميع الأمم كما يزعم وليم مكدوكل وبرتراند رسل) لما رأينا هذا التنوع الكبير بين الشعوب في ثقافاتها وأديانها ومبادئها السياسية والحلقية. هذه الثقافات والقوانين الخلقية (وهي غير غريزية) هي التي تميّز بين الأمم المتمدنة والمتوحشة وعن طريقها يتعدل سلوك الأفراد الغريزي إلى حد كبير.

(٢) هناك مدرستان في علم النفس: أحداهما تحاول تفسير سلوك الكائن الحي عن طريق الوراثة (الغرائز) بينما تسعى الثانية إلى إنكار الوراثة والاهتمام بالبيئة فيما يتعلق بسلوك الأفراد. يتزعم المدرسة الأولى وليم مكدوكل في إنكلترا ويترأس المدرسة الثانية جون وتسن في الولايات المتحدة. الحق أن الكائن الحي (من إنسان وحيوان) ابن وراثته بقدر ما هو ابن بيئته. إننا لا نقسم أفراد المجتمع غريزياً إلى أصدقاء وأعداء، بل نفعل ذلك نتيجة لتربيتنا =

وأعداء يشعر بالتعاون مع الأصدقاء وبالتنافس مع الأعداء. والعامل الرئيسي في هذا إنما هو المصلحة الفردية. فالصديق هو الذي تنسجم مصالحه مع مصالحنا على عكس العدو. ولما كانت مصالح الناس متغيّرة أصبح ممكناً أن يكون عدوهم في وقت من الأوقات صديقاً حميماً تحت ظروف أخرى. ففي بعض الحالات يكره صاحب أحد المعامل منافسه وفي حالات أخرى يتعاون الاثنان عندما يداهمهما عدو مشترك. فالعدو المشترك الخارجي يعمل باستمرار على وحدة من يناوئه. ففي أوقات السلام والاطمئنان قد يكره الجار جاره. غير أن ذلك الكره يتحول إلى حب في وقت الأخطار والازمات. كثيراً ما يتضايق المرء من جلوس شخص إلى جانبه في الباص. غير أن هذا التضايق يزول عندما تجمع الاثنين مصلحة مشتركة. إن هذه الظاهرة تجعل من الصعب على المرء أن يتخيل وسائل لجعل العالم وحدة متقاربة. فإذا ما أصبح العالم بأسره دولة واحدة انتفى وجود العدو الخارجي الذي يؤدي الخوف من وجوده إلى زيادة روابط أفراد الدولة. لقد حاول الدينان العظيمان المسيحية والبوذية[1] إيجاد شعور التعاون بين الناس جميعاً بغض النظر عن اختلافاتهم، وبشرا بضرورة إيجاد الإخوة الإنسانية بين الناس، وقالا بأن

= الاجتماعية وحالتنا الثقافية. يولد الطفل ضعيفاً من جميع الوجوه وليست له لغة أو قومية أو دين. وكلما نما الطفل أصبح أكثر استعداداً لمشاركة مجتمعه في مثله العليا ومبادئه الخلقية ويكتسب، في أغلب الأحيان، عطفه على بعض الجماعات ونفوره من بعضها عن طريق مجتمعه وعائلته. **(المترجم)**

(١) الواقع أن هذا القول ينطبق على الأديان الأخرى كذلك لا على هذين الدينين فقط. **(المترجم)**

الناس عائلة واحدة غير أن كثيراً من أتباعهما لم يدخلوا في حسابهم الناس الذين يعتنقون الأديان الأخرى بل حاربوهم. فالدين والأخلاق والمصلحة الشخصية الاقتصادية وحتى تنازع البقاء من الناحية البايولوجية أمور تعمل بجانب التعاون بين البشر لا ضده. غير أن الغرائز القديمة التي تحدرت إلينا من أسلافنا تقف حجر عثرة في هذا السبيل وتدفعنا إلى كره بعضنا بعضاً. فإذا كان هدفنا وحدة الإنسانية فينبغي إذن إيجاد وسائل للتخلص من الولاء الضيق للجماعة التي ينشأ الفرد فيها والعمل على إيجاد ظروف من شأنها العمل على تقوية نوازع التعاون بين الناس.

إن هذه المشكلة ليست سهلة ولا يمكن حلها عن طريق التربية الخلقية، وعلم النفس التحليلي(١)، على الرغم من مبالغاته الكثيرة وبعض سخافاته، يمكن أن يساعدنا كثيراً في هذا الباب. إنه يعلمنا بأن كبت الغرائز الطبيعية قد يؤدي بالإنسان إلى الشذوذ. وهذا بدوره قد يخلق كثيراً من سوء السلوك والعقد

---

(١) علم النفس التحليلي أو علم نفس العقد (لا التحليل النفسي أو علم نفس العمق كما جاء به فرويد) يبحث في تحليل النفس تحليلاً دقيقاً على الطريقة التي جاء بها كارل يونغ سنة ١٩٢٥. ويونغ هذا، كما هو معروف، بدأ فرويدياً متطرفاً ثم انشق على أستاذه لمبالغته في إرجاع كثير من القضايا النفسية والاجتماعية إلى الغريزة الجنسية. وقد حاول يونغ (بعكس أستاذه فرويد) أن يخفف من الضغط الذي وضعه أستاذه على الغريزة الجنسية وأثرها في سلوك الأفراد والجماعات وأن يضع ضغطاً (أكثر من الضغط الذي وضعه فرويد) على اللاشعور والعوامل المهيجة والأمراض العصبية. ويتبع يونغ أساليب مشابهة للأساليب الفرويدية في التحليل ولكنه، بدلاً من أن يعزو معظم الأمراض العصبية إلى عوامل جنسية بحتة، يحاول إرجاع الكثير منها إلى اضطرابات عصبية ونفسية. **(المترجم)**

النفسية. وقد يكون المرء نتيجة لذلك فضاً غليظ القلب فاقداً لعنصر الشفقة واللذة في الحياة.

لقد لوحظت هذه الظاهرة بين الشعوب البدائية. إذ يقول بعض الباحثين بأن بعض الشعوب البدائية تعتبر قتل الإنسان وسيلة من وسائل التسلية واللعب. إن قتل الإنسان لأخيه الإنسان ظاهرة لم تختفِ حتى في الأمم المتمدنة وإن الفرق بين المتمدن والمتوحش في هذا الصدد إنما هو فرق في الشكل الذي تظهر به ظاهرة القتل.

توجد في كل منا دوافع للبغض والإبداع، غير أن المجتمع في العادة لا يسمح لكثير منها للتعبير عن نفسها. وإن ما يظهر منها على شكل ألعاب ومسابقات جسمية وثقافية ليس كافياً للتعبير عنها. فإذا أردنا القضاء على الحروب وجب علينا أن نفكر جدياً في إيجاد منافذ ملائمة لإشباع الغرائز الإنسانية الموروثة. إنني أعتقد بأنه في الإمكان التعويض عن غريزة المقاتلة بقراءة قصص المخاطرات وما شابهها. ولكن مع هذا فالقراءة هذه قد لا تلائم الكثيرين.

إنني لا أعتقد بأن الإنسان السوي يمكن أن يستغني عن المنافسة. فالمنافسة منذ القدم عامل أساسي في دفع الناس على العمل. فينبغي علينا إذن أن لا نحاول القضاء عليها. بل يجب أن نحاول تغيير شكلها والقضاء على مساوئها. لقد كانت المنافسة موجودة في الوقت الحاضر إبان الحروب. غير أن المنافسة تأخذ أشكالاً أخرى «أقل ضرراً» في الألعاب وفي المسابقات الأدبية والفنية وفي الشعر وغير ذلك. وهي بالإضافة في ما مرّ تهيئ

الظروف لغريزة المنافسة للتعبير عن نفسها. إن الشيء المهم في هذا الصدد هو أن هذا النوع من المنافسة لا يستعمل على نطاق واسع في حياة الناس.

لقد حاولت المدنية الحديثة العمل على نشر الطمأنينة بين الناس لجعلهم سعداء، غير أنها لم تنجح في ذلك بنظري. ولكي أدلل على ذلك أود أن أقتبس فقرة من كتاب السير آرثر كيث المسمي «النظرة الحديثة للتطور الإنساني» قال المؤلف: «إن من زار الأقوام التي تعيش على الفطرة يقتنع بأنها تعيش في سعادة. تحدثنا فرايا ستارك عن الأقوام التي تعيش في جنوب البلاد العربية وتصفهم بالخشونة في العيش وبالسلب والنهب. ولكنها في الوقت نفسه تقول بأنهم يعيشون بلذة وسعادة. ويحدثنا كذلك الدكتور هـ.ك. فراي أحاديث مماثلة عن سكان أستراليا الأصليين ويقول بأن هؤلاء البدائيين يعيشون عيشة ممتعة بالرغم من تعرض حياتهم لخطر مستمر. ويخبرنا الدكتور و.لوي أحاديث مشابهة عن بعض سكان أمريكا».

وقد شوهدت مثل هذه الحالات النفسية عند كثير من الناس أثناء الحرب العالمية الأولى. فقد لوحظ أن كثيراً منهم كان أكثر سعادة وقت الحرب منه وقت السلم إلاَّ في الحالات التي مست الحرب فيها مصالحه الشخصية مساً مباشراً. يستطيع المرء أن يستنتج من ذلك بأن الحياة الهادئة لا تخلو من الممل إذ لا يجد كثير من الناس منافذ كافية للتعبير عن كثير من غرائزهم، ولو أنهم عاشوا قبل أربعمائة ألف سنة مثلاً لوجدوا منافذ كثيرة للتعبير عن ذلك. إن من سوء الحظ أن يضع العلم الحديث في أيدينا

وسائل قوية لإشباع غرائزنا المخربة[1]. فلم تدرس مع مزيد الأسف مشكلة إيجاد سلم موطد بين غرائزنا المخربة هذه وبين ضرورة توجيهها توجيهاً إنشائياً. وقد أخذت هذه المشكلة بالتعقيد مع تقدم العلم. وزاد نتيجة لذلك تقدم الجانب المخرب بالنسبة للجانب الباني ذلك لأن الإنسان في الوقت الحاضر يستطيع أن يقتل ما يقرب من نصف ميلون شخص في لحظة قصيرة. بينما لا يستطيع الإنسان إنتاج الأطفال إلاَّ بالسرعة التي

---

(١) لعل الحروب الكثيرة (التي اعتمدت على العلم ومنتجاته) حدت بالكثير من المفكرين المعاصرين، وفي مقدمتهم الأستاذ رسل، إلى أن يصموا العلم بأنه أداة هدّامة. لقد فرض بعض مفكري القرن الماضي بأن تقدم العلم سوف يقضي على الفقر والجهل والمرض وسيزيد من التفاهم والتعاون بين الأجناس البشرية. الواقع أن في كلا الرأيين تطرفاً وشيئاً من الصواب في الحكم. أما وجه الصواب فناتج، عند حملة الرأي الثاني، عما قام به العلم من التثقيف والقضاء على كثير من الخرافات ومساعدته في جعل الأمم تتعاون أكثر من قبل في مكافحة الطواعين والأمراض المعدية. ودرجة الصواب عند دعاة الرأي الأول هو أثر العلم الحديث في الحروب والتدمير. غير أن هناك خطأً مشتركاً عند أصحاب هذين الرأيين هو أن حسنات العلم وسيئاته ليست متعلقة بالعلم نفسه ولكنها تتبع قصد الشخص الذي يستعمل العلم. فليس العلم مسؤولاً عن ذلك (أن خيراً وأن شراً) وإنما المسؤول هو الإنسان الذي يستعمل العلم. فالطائرة مثلاً لا تلقي من نفسها القنابل على المدن المكشوفة في الحرب كلا ولا هي من نفسها تنقل المسافرين أو تسعف المرضى بالأدوية والطعام وإنما هي آلة تفعل هذا وذاك تحت أمرة من يوجهها من الناس. فالعلم سلاح ذو حدين (مثل النار أو الماء) قد يكون سيداً عنيداً أو خادماً مطيعاً للناس. ثم إن سوء استعمال العلم لم يكن ـ كما يدعي برتراند رسل ـ ناتجاً عن غرائزنا المخربة، إنه ناتج، بنظرنا، عن تأخر مقاييسنا الخلقية وسوء أنظمتنا الاجتماعية والسياسية إذ ليست الحرب ظاهرة نفسية بقدر ما هي حادثة اجتماعية. ولا يتحارب الناس لأنهم مزودون بغريزة المقاتلة بل يتحاربون لتضارب مصالحهم الاقتصادية والسياسية. **(المترجم)**

كان أسلافه ينتجونهم بها. ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يخلق نصف مليون طفل بالسرعة التي تتلف فيها القنبلة الذرية مثل ذلك العدد من الناس أصبح الاعتماد على النشاط التطوري للإنسان في الوقت الحاضر غير كاف لحفظ النوع فلا بد من وجود التطور الاجتماعي.

والمشكلة التي يعالجها المصلحون الاجتماعيون ليست متعلقة بإيجاد وسائل للطمأنينة فقط إذ أن هذه الوسائل (إن وجدت) لا تستطيع أن تشبع رغبات الإنسان. إن حلّ المشكلة يتوقف على إيجاد توافق بين درجة معيّنة من الطمأنينة لبقاء النوع وبين درجة معيّنة من المخاطرة والتعرض للصعاب التي هي من مستلزمات تقدم الحضارة. غير أن الشيء الذي ينبغي أن نذكره دائماً (فيما يختص بإيجاد مثل ذلك التوافق) هو أنه بالرغم من تعرض كثير من مؤسساتنا الاجتماعية ونظمنا ومعارفنا لتغيير مستمر فإن غرائزنا بقيت كما كانت عليه عند أسلافنا القدماء. إنني لا أنكر إمكانية تلاؤم دوافعنا الموروثة مع أساليبنا الاجتماعية في الحياة. غير أني لا أعتقد بأن ذلك ممكناً إذا كان الاهتمام منصباً على أحدهما على حساب الآخر. فالحياة بلا مخاطرة إنما هي حياة تعوزها اللذة بينما لا تكون الحياة المبنية على المخاطرة وحدها طويلة الأمد.

ينشد كل إنسان كلاً من المخاطرة والطمأنينة على القدر الذي يوصلان به إلى التمتع بالحياة. فيجد بعض الناس متعة بالحياة عن طريق التمثيل السينمائي أو عن طريق البروز في الألعاب الرياضية أو عن طريق الشهرة العسكرية والسياسية.

وهناك من ينشد ذلك التمتع عن طريق الخيال وأحلام اليقظة. أنني لا أشك أن أحلام اليقظة ليست كلها شراً. فبعضها ضروري لحياة الخيال. غير أنها قد تصل إلى درجة يستحيل تحقيقها فتصبح خطرة على حياة الإنسان. إنه من الممكن أن نجد في عالمنا الحديث منافذ حقيقية لكثير من رغباتنا. إننا نأمل إمكانية تحقيق ذلك لكي يسود الاستقرار ويتلاشى أثر الفلسفات المخربة. وإذا تحقق ذلك أصبح ممكناً للنوازع المخربة في كل منا أن تجد لها منافذ إنشائية لا تتعارض والحياة الحديثة.

الفصل الثاني

الحكومة والصلات الاجتماعية

لقد كان أساس الصلاة الاجتماعية ولا زال عند كثير من الأقوام البدائية مبنياً على العوامل النفسية عند الفرد دون حاجة إلى وجود سلطة اجتماعية خارجة عن الفرد. إننا لا نشك بوجود عادات قبلية ينصاح إليها أفراد القبيلة. غير أن أساسها على ما نظن ناتج عن عدم وجود دوافع نفسية تدفع المرء لعصيانها. وعلى هذا فليس هناك حاجة لوجود قوة بوليسية للمحافظة على تلك الصلات الاجتماعية بين الناس. لقد عاشت القبيلة في العصر الحجري الأول في حالة يمكن أن يُقال عنها بأنها فوضى. بينما يسود في المجتمعات الحديثة العامل الاجتماعي الذي يوجه سلوك الأفراد توجيهاً اجتماعياً. أما في العصر الحجري الثاني فقد عاش الناس عيشة تختلف عن عيشة أسلافهم إذ كانت لهم حكومة لها سلطات على الناس وكانت تعمل على نشر التعاون بينهم.

تتضح هذه الظاهرة عند فحص مخلفات السلف، فلولا التعاون وسلطة الحكومة لما بنيت الأهرام مثلاً. غير أنه من الجهة الثانية يمكن أن يُقال بأن الوحدة الاجتماعية لتلك الأقوام

كانت قد نتجت عن الحرب. ولما كانت الحرب السالفة مبنية على إبادة المغلوب واسترقاق من تبقى منه فقد أصبح بإمكان الغالب أن يوسع حدوده ويكثر عدد أفراده على حساب المغلوب. وقد أصبحت الحرب كذلك عاملاً من عوامل التحالف بين قبيلتين فأكثر ضد عدو مشترك. وقد أدى هذا التحالف بدوره إلى تحالف أوسع وإلى تعاون مشترك في وضع الخطط والتصميم فأدى إلى نشوء قوة عليا تخضع لسلطانها قبائل عديدة ـ هي الحكومة.

وبنشوء الحكومة أصبح بعض الناس أكثر سلطة من البعض الآخر. وأصبحت قوة هؤلاء الناس معتمدة على كثرة عدد من يحكمونهم. وقد أثار حب السلطة اللذة في الغزو. ومما زاد في تلك اللذة قوة هو استعمال المغلوبين لخدمة الغالبين بعد أن كان مصيرهم الموت سابقاً. وبهذه الطريقة نشأت الجمعيات التي تسندها قوة الحكومة التي حاولت القضاء على عوامل البغضاء الداخلية ونشر التعاون بين أفراد المجتمع لمحاربة الأعداء. وبهذا اتسعت سلطة الملوك والأمراء فأصبح في مصر القديمة مثلاً ملوك ذوو سلطات واسعة لا تحددها إلاّ سلطة الكهنة فيما يختص بأمور الدين. وقد أخذ الملوك يستخدمون الناس لتحقيق أغراضهم الخاصة مثل بناء القصور والأهرام. فكانت الأقلية إذن هي السائدة في تلك المجتمعات. وكانت الأقلية آنذاك مكونة من الملك وحاشيته والكهنة وتعتمد سلطتها على مجرد الإطاعة. وقد عاش كثير من الناس في مثل تلك الظروف عيشة تعسة غير أن السعادة بصورة عامة لم تكن مفقودة خصوصاً في أوقات الرخاء.

وقد ساد الناس آنذاك شعور بوجوب التضحية في سبيل الدولة. لقد كانت هذه الظاهرة منتشرة في البقعة التي ندعوها الآن في الشرق الأوسط. إذا اعتمدت الوحدة الداخلية على كل من الدين والسلطة المطلقة للملوك. وكان العصيان يعتبر خروجاً على الدين يسبب غضب الآلهة. ولما كان الحُكام يؤمنون بذلك إيماناً صادقاً حاولوا أن يجعلوا بقية الناس يؤمنون به فيدربونهم عليه كما تدرب الحيوانات على القيام ببعض الأعمال.

كثيراً ما يجعل التغلب العسكري المغلوبين موالين للغالبين. حدث ذلك على عهد الرومان في الشرق الأوسط. وقد حققت إنكلترا وحدتها الداخلية عن طريق الفتح العسكري الذي قام به أحد الحُكام الأجانب عندما غزاها. ويصدق الشيء نفسه على فرنسا وإسبانيا.

لقد أعوز الاستقرار كثيراً من الدول القديمة عدا مصر. وكانت أسباب عدم الاستقرار هذا متعلقة بعدم توفر المسائل الميكانيكية. فكان الحصان أسرع أداة للنقل ولا يخفى ما في ذلك من صعوبة تتعلق بسرعة حركة نقل الجنود من مكان إلى مكان وصعوبة القضاء على الثورات التي تحدث في بعض أطراف الممالك البعيدة عن مراكزها مما أدى إلى ظهور الأمراء وملوك الطوائف وما تبع ذلك من انحلال في السلطة المركزية واستقلال للإمارات. لقد حكم كل من الإسكندر وهولاكو وجنكيزخان امبراطوريات شاسعة تفككت بعد موتهم مباشرة، إذ كانت تعتمد كلياً على شهرة الفاتح وقوته. لم يكن في هذه الامبراطوريات وحدة نفسية وإنما كان اعتمادها على الوحدة العسكرية. أما في

روما فقد كان الوضع مختلفاً حيث كانت الحضارة الرومانية ـ اليونانية مبنية على تثقيف الأفراد لا على مجرد إخضاعهم بالقوة.

لم يكن ممكناً (إلى الوقت الذي اخترعت فيه الأساليب الحديثة) المحافظة على امبراطوريات شاسعة دون الالتجاء إلى الطبقات العليا من المجتمع وتحبيبها للناس لكسب ولائهم. وكان الأساس النفسي للصلاة الاجتماعية قائماً على الولاء للأقلية الحاكمة. غير أن سعة الامبراطوريات وعدم تجانس شعوبها وصعوبة تحريك الجيوش بين أرجائها الواسعة أدت إلى انحلالها. وعلى هذا لم يكن سهلاً على الحكومات المركزية أن تقضي على الثورات الداخلية. وقد تكررت هذه الظواهر في العصور الحديثة فكانت صعوبة حركة الجيوش سبباً كبيراً في فقدان أسبانيا والبرتغال وإنكلترا لمستعمراتها في أمريكا. غير أن هذه الدول حاولت تكوين ولاء أكثر عمقاً بين أفراد ما تبقى من مستعمراتها في الوقت الحاضر عن طريق اللجوء إلى استعمال الوسائل العالمية الحديثة.

لم يسهل العلم الحديث التقارب الاجتماعي بين الناس فقد ولكنه أيضاً جعل المجموعات الكبيرة من الناس ضرورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية. وأصبحت فوائد الإنتاج على نطاق واسع واضحة المدى للناس ولا أراني بحاجة هنا إلى التوسع في شرحها. وكل منا يعرف أهميتها في تحقيق الوحدة القومية في أوروبا الغربية. وقديماً عمل النيل على وحدة المصريين جميعاً. ومنافع وادي تينسي وأعالي نهر سنت لورنس

وما رافق ذلك من تقدم صناعي واجتماعي واضحة للعيان. فقد انتشرت منها قوى كهربائية امتدت بعيدة عن المركز وأصبحت نافعة من الوجهتين المادية والمعنوية وعمت فوائدها مساحات كبيرة من الأرض. وإذا استطاع الناس استعمال قوة الذرة لأغراض إنسانية فإن في ذلك من الفوائد الشيء الكثير. فالقوى المحدودة الاستعمال إذا ما استعملت لأغراض إنسانية بعيدة المدى عمت فوائدها وأصبح من الممكن أن لا تقف تلك الفوائد عند حد خصوصاً إذا نظمت تنظيماً علمياً.

سأحاول فيما تبقى من هذا الفصل أن أعالج (معالجة سريعة) تطور الحكومة في اتجاه آخر. لقد تغيّر شكل سيطرة الحكومة على حياة الأفراد تغيراً كبيراً على مرّ الزمن وزاد سلطانها ليس فيما يتعلق بسعة ذلك السلطان فقط ولكن في مدى تدخل الحكومة في حياة الأفراد. لقد نشأت الحضارة قديماً بين المصريين والبابليين وبين الأقوام المعاصرة. وكان للطبقات العليا في المجتمع (الملوك والكهنة) في هذه الامبراطوريات نشاط سياسي محسوس بينما انعدم مثل ذلك النشاط عند أفراد الشعب الآخرين. وتمكّن الكهنة من التدخل في حياة الناس إلى حد كبير. وكان للملوك سلطان مطلق في كل شيء تقريباً عدا أمور الدين. إذ كان بإمكانهم سوق الناس إلى الحروب وما شابهها. وقد أدت قدسية رجال الدين وسلطة الملوك إلى إيجاد مجتمع مستقر في مصر قديماً. غير أن ذلك الاستقرار كان قد بني على حساب الاستذلال سائر أبناء الشعب. أما في المجتمعات الأخرى التي عاشت في ذلك الوقت كان الجمود سائداً إلى درجة

أصبحت معها مقاومة العدو صعبة كما يتضح ذلك في حروب الفرس واليونان.

بدأ اليونان في بناء حضارة أنشأ جذورها من سبقهم. كانت تلك الحضارة مبنية على أساس دول صغيرة تعتمد على التجارة واستعمال البحر. وقد اختلفت دول اليونان فيما بينها حول الحرية التي ينبغي أن تمنح للمواطنين. وإذا استثنينا أسبارطة وجدنا حرية المواطن مضمونة إلى حد كبير آنذاك. ولكن مع هذا فقد تعرضت كثير من تلك الدويلات للحكم المطلق في فترة من الزمن. وكانت الثورة في هذه الدول الصغيرة سهلة حيث سهل تخلص الثائرين من حدود الدويلة التي ينتمون إليها بالانتقال إلى حدود الدويلة المجاورة التي كانت كثيراً ما تشجعهم على ذلك. وقد سادت الحكم اليوناني فوضى سياسية لا يستطيع العقل الحديث احتمالها. غير أن سكان اليونان (حتى الثائرين منهم) قد نشأوا على الولاء لبلادهم وعلى حب وطنهم حباً كبيراً وعلى التفاني في سبيل الدفاع عنه. وتعزى عظمة اليونان من حيث الإنتاج الفني، على ما أظن، إلى ضعفهم من الناحية السياسية.

لقد أحدثت الامبراطورية الرومانية (حينما كانت تتسع) مقداراً كبيراً من الولاء عند الأقوام التابعين لها. غير أن سلوك بعض أباطرتها أثار بعض الناس فعرّض ذلك الولاء إلى التصدع وفصل بعض أقسام الامبراطورية عنها. ومما زاد في ذلك التصدع فرض الضرائب الكثيرة على الناس مما أدى إلى تذمرهم.

أخفقت روما في إيجاد وحدة عالمية بين الأمم المتمدنة

آنذاك لأنها كانت بعيدة عن كثير من أجزائها وغريبة عنها. ولم يكن في مقدورها أن تهيئ الناس نفسياً لقبول سيطرتها عليهم. فساد الضعف والامتعاض كثيراً من أجزائها. وأعتقد بعض الناس نتيجة لانتشار المسيحية بأن العالم هذا فان وإن الحياة الحقيقية هي التي تأتي بعد الممات. وباندثار روما تعرض العالم الغربي لتغيير كبير. فقد ضؤلت التجارة كثيراً وتعرضت طرقها للمخاطر وقام الملوك والأمراء المحليون بمهاجمة بعضهم بعضاً. وكثر عددهم وصغرت مساحات أراضيهم. وأخذ الرق بالتلاشي وأخذت عبودية الأرض تأخذ محله. وقد اعتمدت الإمارات الصغيرة كل على نفسها فيما يختص بتموينها حيث ضعف اتصالها وتلاشى بتلاشي قوة روما. وقد أصبحت الحياة صعبة لا تُطاق بالنسبة لما كانت عليه على عهد الرومان وانتشر (طوال القرون المظلمة والعصور الوسطى) الخروج على القانون السائد مما اضطر بعض المفكرين إلى العمل على إيجاد قوانين جديدة لبناء حضارة جديدة.

لقد أخذت قوة الدولة تزداد وتضعف قوة الأفراد باستمرار منذ القرن الخامس عشر حتى الآن. وكان اختراع البارود سبب ذلك في بادئ الأمر. وقد أدت قوة الدولة إلى أن كثيراً من الناس أخذوا يتغنون بالحرية الفردية عكس الأقوام التي كانت تتوق إلى النظام في وقت الفوضى. وقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر نجاحاً كبيراً في زيادة قوة الدولة إلى الحد الذي جعلها قادرة على حفظ النظام وفي الوقت نفسه قل تمتع أفرادها بالحرية خصوصاً الطبقات الدنيا الاجتماعية. إن المصلحين الاجتماعيين

وإن لم يغفلوا أمر الاهتمام بالحرية إلاّ أنهم مالوا إلى تبيان ضرورة المساواة التي ظهرت نتيجة لتكوين طبقة جديدة من الأغنياء وأرباب المال أدت الثورة الصناعية إلى إيجادها. كما أن ضرورات التهيؤ لحروب إجماعية كانت قد جعلت كل فرد تقريباً يشعر بضرورة تكوين الوحدة القومية. وانتشر هناك اعتقاد (مشابه لعقيدة المصريين القدماء) فيما يختص بقدسية الملوك ورجال الدين. إن هذا الاعتقاد وإن كان الشرق منشأه غير أن قوته في الغرب آنذاك لم يكن ليستهان بها. وقد حددت الحكومة والشركات كثيراً من مظاهر حرية الفرد مما أدى إلى ضعف الشعور بالمسؤولية الاجتماعية. وكانت هذه الظاهرة قد هددت روما القديمة وهي ظاهرة خطرة على النشاط الاجتماعي. تصلني باستمرار رسائل يقول أصحابها بأن العالم سائر إلى الهاوية وأن الفرد عاجز عن درء الخطر. ويقول كاتبو هذه الرسائل إن الحياة والملكية واقعتان تحت رحمة أفراد قلائل لهم الكلمة العليا فيما يختص بالحرب والسلم. وإن النشاط الاقتصادي الهائل يقرره أولئك الذين يديرون الحكومة والشركات الكبرى. وإن ليس للفرد (حتى في الدول التي تسمي نفسها ديموقراطية) أهمية ملحوظة في أمر السياسة العليا لبلده. ثم يستنتج هؤلاء الكُتّاب بأن واجبات الفرد في هذه الحالة أن يتناسى المصلحة العامة وأن ينصرف إلى ملذاته الخاصة بقدر ما تسمح به الظروف. ليس سهلاً أن يجيب المرء على مثل هذه الرسائل. هذا إلى أن الوضع الاجتماعي العام للدولة في الوقت الحاضر يوحي للبعض بكتابتها. كل هذا يشير إلى الهوة السحيقة بين الحُكام

والمحكومين. إن هذه الحالة مجلبة لكثير من المشاكل وإني شخصياً لعاجز عن إيجاد علاج ناجع لها. غير أنني أعتقد بأن الخطوة الأولى لإيجاد مثل هذا العلاج هي تشخيص الداء ومن ثم محاولة تلمس الأساليب المتعلقة بتلطيفه وشفائه.

إن أساس الصلات الاجتماعية مبني (كما ذكرنا) على الولاء للقبيلة ذات العدد المحدود من الأفراد الذين يعرف بعضهم بعضاً. إن ظاهرة التعارف الاجتماعي هذه لظاهرة معقدة في الدولة نظراً لكبر مساحتها وكثرة عددها. فالولاء القديم للقبيلة لم يعد فعّالاً كما كان سابقاً وأخذ يتلاشى نتيجة للتنظيمات الحديثة التي تطلبتها ضرورات الحياة. يستطيع الفرد الإنكليزي أو الأسكتلندي أن يشعر بعاطفة الولاء لبريطانيا ويمكنه أن يتذكر ما قال شكسبير فيها. وهو يعرف أنها جزيرة تفصلها حواجز طبيعية عن جاراتها. هذا إلى الإنكليزي أو الأسكتلندي يعرف تأريخ بريطانيا خصوصاً فتوحاتها وتقدمها العلمي والصناعي. وهو عارف كذلك بأن سكان القارة الأوروبية يتكلمون لغات أجنبية. ولكن إذا أردنا أن يحل الولاء للاتحاد الغربي(١) محل الولاء لبريطانيا فينبغي أن يكون هناك وعي من جانب كل من الإنكليزي والأسكتلندي بأهمية الشعور بضرورة المحافظة على الثقافة الغربية من حيث كونها شيئاً قائماً بذاته يسمو فوق الحدود الوطنية. وإذا أخفقنا في تكوين ذلك الوعي لم يبقَ لدينا سوى دافع نفسي واحد

---

(١) الاتحاد الغربي هو تكتل بعض دول غربي أوروبا وارتباطها بالتزامات عسكرية قَبل بضع سنوات. إن هذه الظاهرة هي إحدى مظاهر تكتل بعض الدول الأوروبية التي تخشى امتداد السيطرة الروسية في أوروبا. **(المترجم)**

ملائم لهذا الغرض وهو الخوف من عدو خارجي(١). غير أن الخوف دافع سلبي يتلاشى ساعات الظفر(٢).

لقد كانت للدولة منذ نشأتها الأولى وظيفتان: إحداهما سلبية والثانية إيجابية. وكانت الوظيفة السلبية منصبة على منع اعتداء الأفراد على بعضهم داخل الدولة والوقوف دون الغزو من الخارج. وتبع ذلك محاولة المحافظة على حياة الأفراد وملكياتهم ومعاقبة المجرمين بالعقوبات القانونية. أما من الناحية الإيجابية فكانت الدولة واسطة لتسهيل الاتصالين العقلي والعاطفي بين أفرادها ولتكوين شعور عام مماثل فيهم جميعاً نحو وطنهم. غير أن اهتمام الحكومة في معظم الأوقات كان منصباً على التهيؤ للحرب. لذلك أخذت الحكومات تلقن أبناءها بأن القضاء على العدو يعني التوغل في أراضيه واستثمارها لمصلحتهم. لقد تشعبت وظائف الدولة في الوقت الحاضر وتعددت جوانبها لا سيما النواحي الإيجابية منها. فكثر الاهتمام بتربية الأفراد تربية تزودهم بالمعارف والعلوم الأساسية وتنشر بينهم بعض العقائد والمبادئ التي تعتبرها الدولة أموراً أساسية لوجودها والتي لا يعارضها رجال الدين. ومما قوى ذلك هو وجود التنظيم الصناعي والتشريع الحكومي المتعلق بالعمال وأصحاب المهن. وأصبحت للحكومة (حتى في الولايات المتحدة حيث تسود الحرية الفردية) مسؤوليات كثيرة متعلقة بتنظيم الصناعة

---

(١) يقصد برتراند رسل بالعدو الخارجي هنا روسية السوفياتية. (المترجم)

(٢) لا يتلاشى دافع الخوف، على ما نظن، حتى في ساعات الظفر وإنما تتضاءل هيمنته نتيجة لانشغال الظافرين بإشباع دافع الانتقام من الخصم. (المترجم)

والشركات. غير أن هناك فرقاً ضئيلاً (من الناحية النفسية) بين التنظيمات الحكومية للصناعة وبين التنظيمات التي تقوم بها الشركات والهيئات الخاصة. هذا إلى أن الحكومة لا تقف مكتوفة اليدين تجاه الشركات في حالة تنظيم العلاقات بين الأفراد. وبذا أصبحت الحاجة ماسة إلى التعاون في الوقت الحاضر مما أدى إلى تشجيع الشركات الكبرى على الاستمرار في أعمالها من جهة إلى تقلص نفوذ التشكيلات الصناعية الصغرى من الجهة الأخرى.

سوف اقترح في الفصل القادم ما أراه ملائماً لإصلاح بعض نقائص الشركات المتعلقة بكل من التنظيم وحرية الفرد. يتجه التفكير السياسي في الوقت الحاضر نحو المركزية في الحكم. وهذا أمر محفوف بالمخاطر. وقد أدى التفكير المشابه لهذا التفكير في القرن الخامس عشر إلى زعزعة الثقة بالنظام وإلى الميل للفوضى وإلى انتشار الفقر. أرجو مخلصاً أن لا يؤدي الوضع الحاضر إلى شيء من هذا القبيل. ولتجنب حدوث ذلك ينبغي دراسة الوضع الحاضر دراسة جدية واتخاذ الخطوات اللازمة لإصلاح.

وسوف اقترح في الفصل القادم ما أراه ملائماً لإصلاح بعض نقائص الشركات المتعلقة بكل من التنظيم وحرية الفرد. يتجه التفكير السياسي في الوقت الحاضر نحو المركزية في الحكم. وهذا أمر محفوف بالمخاطر. وقد أدى التفكير المشابه لهذا التفكير في القرن الخامس عشر إلى زعزعة الثقة بالنظام وإلى الميل للفوضى وإلى انتشار الفقر. أرجو مخلصاً أن لا يؤدي

الوضع الحاضر إلى شيء من هذا القبيل. ولتجنب حدوث ذلك ينبغي دراسة الوضع الحاضر دراسة جدية واتخاذ الخطوات اللازمة لإصلاحه.

لقد ألمعنا عند بحث العلاقات الاجتماعية في الماضي إلى ظهور نزعة ذات وجهين. فقد كان هناك من الناحية الأولى نمو من حالة بدائية غير منظمة إلى حالة أكثر تنظيماً حيث أصبح للحكومة أثر في التنظيم امتد إلى مساحات أكبر وشمل عدداً من الناس كبيراً. وقد رافقت هذه الحالة من الجهة الثانية زيادة سريعة في الثروة. إن تلكِ الزيادة في الثروة وإن لم تقضِ نهائياً على شرور الماضي ولكنها مع هذا أحدثت تقدماً كبيراً في الحضارة. غير أن الحضارة الحديثة من الجهة الثانية أصبحت جامدة وكثر اهتمام الحُكام بمصالحهم وانتشرت الفوضى الداخلية بين الأفراد وأصبح تقدم المجتمع بطيئاً. إن هذا التحول يتضح كثيراً في الصين والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر والعالمين اليوناني والروماني. لقد كان في مقدور الأمم القديمة مقاومة الغزاة لو عرفت نوع أسلحتهم وكيفية استعمالها وأساليب غزوهم. ويعزى فشل الأمم القديمة مقاومة الغزاة إلى جهلها بأنواع أسلحتهم وأساليب حروبهم. ومن الطريف أن نقول بأن الغزاة غالباً ما يكونون أقل تقدماً من الأمم التي يغزونها. وعلى هذا لم يستطع الغزاة حماية امبراطوريات واسعة وذلك لضعفهم في أمر حماية طُرق المواصلات. وكانت نتيجة ذلك تقليل عدد الوحدات الحكومية والإكثار من التركيز في الإدارة.

وهناك بالإضافة إلى ذلك ظاهرة أخرى هي زيادة سلطة

الحكومة المباشرة على الأفراد والتي رافقها تقلص في مساحة الامبراطوريات. لقد كانت الامبراطوريات الرومانية أوسع من الامبراطوريتين البابلية والمصرية. غير أن الامبراطوريات الحديثة أكبر من الامبراطورية الرومانية. وعلى هذا فالامبراطوريات القديمة أوسع من التي تليها مباشرة أما الأمبراطوريات الحديثة فأكثر سعة من الامبراطوريات القديمة. فليس في الماضي دولة كبيرة تحكم عدداً كبيراً من الناس على الشكل الذي تحكم فيه روسيا السوفياتية شعبها في الوقت الحاضر حتى ولا على الشكل الذي تحكم فيه إنكلترا الحديثة شعوبها. ولما كانت الأرض محدودة الحجم أصبح ممكناً أن يؤدي هذا الوضع إلى إيجاد دولة عالمية واحدة غير أن الشعور بوحدة هذه الدولة يقتضي إمكان التفكير بظهور عدو خارجي يهدد كيانها. ولما لم يكن متوقعاً ظهور مثل هذا العدو فإن إمكانية استثارة غريزة الخوف صعبة الوقوع وعلى هذا يفشل علم النفس القديم في تحقيق تلك الوحدة وعلى هذا يصبح احتمال تكوين ولاء للحكومة العالمية بهذه الطريقة صعباً. ولكي يتكون مثل هذا الولاء ينبغي تشجيع المصلحة الذاتية والانصاف الاجتماعي وإهمال دوافع الخوف. فهل يمكن تحقيق ذلك؟ وإذا كان ذلك ممكناً، هل سيؤدي إلى التقدم؟ ليست الإجابة على مثل هذه الأسئلة سهلة. غير أني سأحاول تلمس إجابتها في الفصول القادمة.

الفصل الثالث

المواهب الفردية

سأحاول في هذا الفصل التطرق إلى أهمية الدوافع والرغبات التي تعود إلى بعض أفراد المجتمع دون غيرهم من حيث منافعها ومضارها. لا تلعب مثل هذه الدوافع والرغبات الفردية دوراً كبيراً في المجتمعات البدائية. إن بعض أفراد المجتمع في الماضي وإن كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم في مهنتي الصيد والحرب (وهما أهم المهن السائدة آنذاك) إلاً أن سائر أفراد المجتمع عادة يساهمون في ذلك. وكلما كان نشاط الفرد مجلبة لاستحسان الجماعة ومشاركتها فيه قل تحديد الناس لنشاطه الفردي وكثر تشجيعهم له.

كلما تقدم المجتمع في نموه ظهرت فروق بين نشاط أفراده. وكلما كثرت تلك الفروق تكونت للمجتمع حاجات جديد للانتفاع بها وتوجيهها. لقد اعتمد كل من التقدم الفني والخلقي والثقافي كثيراً على الأفراد الموهوبين الذين كان نشاطهم ولا زال عاملاً حاسماً في انتقال الإنسانية من الهمجية إلى الحضارة. ويتوقف مدى استفادة المجتمع من مواهب أفراده على مدى التقدم وبالعكس. غير أن هناك ميلاً واضحاً في المجتمعات

المنظمة لتحديد نشاط الأفراد الموهوبين. غير أن المجتمع من الناحية الثانية إذا فقد سيطرته على هؤلاء الأفراد قد يضطرهم إلى الانهماك في أمور ضارة بكيانه. والمشكلة الكبرى هنا هي مشكلة التوافق بين حرية الفرد والتنظيم الاجتماعي. ففقدان الحرية يؤدي إلى الركود وعدم تنظيمها يؤدي إلى الفوضى. تظهر الفروق بين الأفراد بطرق شتى. فبعضهم فوضويون وبعضهم مجرمون وبعضهم ذوو مواهب فنية كبيرة ومنهم حكماء ورجال دين وعلماء أخلاق... إلخ. يظهر أن التخصص في الوظائف بين الناس قديم قدم الإنسان. وتدل الصور التي اكتشفت في جدران بعض الكهوف على أن الفن لم ينعدم عند الإنسان القديم. ولكن مع هذا لا يمكن أن يُقال بأن جميع الأفراد آنذاك كانوا يقدرون الفن. إنه من المحتمل كثيراً أن يكون فنانو ذلك العصر معزولين في بيوتهم في الوقت الذي يشتغل فيه أفراد القبيلة الآخرون في الصيد. ويمكن أن يُقال كذلك بأن شيخ القبيلة والكاهن كانا قد بدآ وظيفتيهما منذ بدء حياة القبيلة. ويصدق الشيء نفسه على الأطباء والسحرة ومن شابههم. ولكن منذ البداية كان هنالك ميل لتحديد كل نشاط من هذا القبيل وحصره ضمن تقاليد معيّنة. فقد أصبحت وظيفة الشيخ وراثية وكون الأطباء طبقة خاصة بهم وهكذا. لقد كان صعباً على المجتمعات أن تكشف الموهوبين إذ أن الموهبة ليس سهلاً اكتشافها.

سأحاول في هذا الفصل استعراض تأريخ العلاقة بين الشخص الموهوب وبين المجتمع من جهة وبين الظروف التي من شأنها استثمار مواهبه وجعلها نافعة للمجتمع من جهة أخرى.

سأبحث في هذا الموضوع في الفن أولاً وفي الدين والأخلاق ثانياً وأخيراً في العلم. لا يلعب الفنان دوراً كبيراً في الحياة العامة في الوقت الحاضر بالنسبة للماضي فهناك ميل عند الكثيرين لاحتقار شاعر البلاط والنظر إلى الشعراء عامة نظرة فيها شيء من الضعة. أما في الماضي فكان الوضع معكوساً. كان هومر وفرجيل وشكسبير شُعراء بلاط تغنوا في أشعارهم بأمجاد قبائلهم وبتقاليدها النبيلة. أما فيما يتعلق بشكسبير فلا أظن أنه كان شاعر بلاط غير أن رواياته تدل على عكس ذلك. لقد خلد المؤرخون الولزيون أمجاد الملك آرثر تلك الأمجاد التي تغنى بها كُتّاب فرنسيون وإنكليز. وقد شجعهم الملك هنري الثامن (لأغراض إستعمارية) على ذلك. وقد خلّد بعض الكُتّاب أمجاد البارثنون والكنائس القديمة. ولعبت الموسيقى كذلك دورها في التشجيع على الحروب وتربية الذوق. أما الآن فقد ضؤل دور الفنانين بصورة عامة وأصبح الناس لا يقدرون الفنان لأنهم يعتبرون الفن شيئاً منعزلاً عن الحياة لا شيئاً متصلاً بها. ويشذّ عن هذه القاعدة الفن المعماري إذ إنه يقدر لمنافعه وقد حافظ على بعض مظاهر الفن القديم.

لا يرجع انحلال الفن في الوقت الحاضر إلى اضمحلال مركز الفنان من الناحية الاجتماعية فقد وإنما يعود كذلك إلى أن الرغبة في تعاطي الفن والتلذذ به لم تكن ملحة كما كانت في الماضي. فلا زالت بين الطبقات غير المتعلمة ميول للموسيقى والرقص الشعبيين. ولا زال كثير من الناس يتعاطى الشعر ولكن كلما أصبحت الحياة صناعية أصبح من الصعب توجيه الناس

عنها. إن التفكير في أمور العيش تحت الظروف الحاضرة لظاهرة خطيرة تصرف الناس عن أمور التفكير في الفن. ولا يمكن بعث الحياة الفنية إلاَّ إذا قدّر للفن أن يستهوي الناس جميعاً.

إن عظماء الناس عادة هم المشتغلون في حقل الدين والأخلاق. وبالرغم من القدسية التي خلعها بعض الناس عليهم بعد مماتهم فإنهم عاشوا في نزاع مستمر مع مجتمعاتهم. يرتكز الإصلاح الخلقي على محاولة هدم العادات الخشنة والتقاليد الضارة واستبدالها بغيرها مع محاولة تلطيف علاقات الناس ونشر المحبة بينهم. وقد بشر بذلك بعض فلاسفة اليونان ودعوا إلى ضرورة نشر الإخوة الإنسانية ليس بين أحرار اليونان فقط بل وبين البرابرة والعبيد والأقوام الأخرى. وقد بشرت كل من المسيحية والبوذية بمبادئ من هذا القبيل. كان الدين في بادئ الأمر عاملاً من عوامل الوحدة الاجتماعية بين القبيلة فأدى إلى نزاع بين القبيلة التي نشأ فيها وبين غيرها من القبائل كما أدى إلى تعاون بين أفراد القبيلة نفسها. وأخذ في النهاية شكلاً يسمو فوق حدود القبيلة ويتحدى مفاهيمها الخلقية الضيقة. ولا غرو أن أصبح رجال الدين في بادئ أمرهم معرضين للأخطار حيث إنهم حاولوا أن يسلبوا الناس بعض عقائدهم التي ألفوها. وأصبحت من وجهة نظر الدين الخشونة القبلية رذيلة، بعد إن كانت فضيلة يتفانى الناس في سبيلها. وحدث نزاع كبير بين الذين يفضلون الأخلاق القبلية على هذا النوع من الأخلاق (الذي بشر به الدين) وبين الداعين إلى تغييرها.

لقد أصبح لرجال الدين وعلماء الأخلاق أثر كبير في حياة

الناس. إننا وإن شاهدنا في الوقت الحاضر فقدان كثير من القِيم الأخلاقية في كثير من أنحاء المعمورة فإن ذلك لا يدل على زوال تلك القيم من جميع الأقطار. إننا مدينون لعلماء الأخلاق في محاولاتهم جعْل المستويات الخلقية العالمية عاملاً يسمو فوق الحدود الجغرافية والقبلية. وإلى محاربتهم الرق وشعورهم الطيب نحو أسرى الحرب وتحديهم سلطات الرجل نحو المرأة وموقف الكبار من الصغار وعدم اعترافهم بأفضلية بعض الشعوب على غيرها ونفورهم من فكرتي الاستعمار والاستغلال. إن هذه المبادئ ستسود في المستقبل وتنظم علاقات الناس وإن اختلفت إلى حين.

لقد دعا الأنبياء والحكماء إلى أهمية النواحي الخلقية وتهذيب شعور الناس. وقد أدى ذلك إلى أنهم لم يعيشوا سعداء في زمانهم. فقد حكم على سُقراط بتناول السم لتبشيره بمبادئ خلقية جديدة. إن الوضع الحاضر في الدول الدكتاتورية لا يقل سوءاً عما كان عليه في عهد سُقراط وفي أواخر أيام المسيح. ففي الدول الدكتاتورية المعاصرة يعرض الشخص الذي يعتنق فكرة تعارض فكرة الدولة نفسه للخطر كما تتعرض فكرته للخطر كذلك. إذ أن كل تغيير في التفكير السياسي (في الدول الدكتاتورية) ينبغي دائماً أن يأتي عن طريق الحكومة. والحكومة كما هو معروف (في الحاضر والماضي) لا تشجع ما يتنافى ومصالحها. وعلى هذا فهي لا تنشر إلاَّ مذهباً واحداً وتحث أفراد المجتمع كافة على الخضوع له. هذه الظاهرة جديدة العهد في تاريخ البشرية أدى إليها ازدياد السيطرة الحكومية على حياة الأفراد

وشجعها العلم الحديث. إننا نعتقد بأن انتشارها لمما يخيب الأمل في تقدم البشرية.

ليس سهلاً في الوقت الحاضر أن يجد العبقري متسعاً لإبراز عبقريته خصوصاً إذا كانت تتعارض ومصالح الحاكمين. إن امام الفرد في الظروف الراهنة احتمالات أربعة لإبراز مواهبه: فيمكن أولاً أن يكون سياسياً كبيراً مثل لنين أو صاحب ثروة كبرى مثل روكفلر. ويمكن ثانياً أن يغير وجه البسيطة عن طريق الاختراع العلمي كما فعل علماء الذرة. وأخيراً يمكنه إذا لم يجد منافذ صالحة لنشاطه العقلي أن يصبح مجرماً. فالمجرمون من الوجهة القضائية لا يعتبرون مصلحين اجتماعيين ولا أثر لهم كبيراً في مجرى التأريخ. وعلى هذا يحاول الشخص النابه الطموح أن يجد لعبقريته منفذاً غير الإجرام.

إن ظهور رجال العلم في المجتمع لظاهرة حديثة. حاول العلماء (كغيرهم من المصلحين) شق طريقهم في الحياة. وتعرض بعضهم للقتل والحرق والنفي وغير ذلك.

لم يستطع العلماء أن يحافظوا على حياتهم إلاّ بعد أن شعرت الحكومة بأنهم يستطيعون تجهيزها (عن طريق مخترعاتهم العلمية) بأسلحة فتاكة في الحروب. لقد شنق الثوار الفرنسيون لافوازييه ولكنهم ندموا بعد ذلك حينما اكتشفوا أنهم يستطيعون استعمال بعض مخترعاته في صناعة المفرقعات. أما في الوقت الحاضر فتحترم الحكومات المتمدنة العلماء وتستخدم مكتشفاتهم العلمية في الحروب. ولا تعذب الحكومات إلاّ أولئك العلماء الذين يظن بأنهم يعملون على تسليم نتاج عقولهم للحكومات المعادية.

يميّز التقدم العلمي عصرنا الذي نعيش فيه من غيره من العصور ويظهر أثر العلم على الحياة اليومية بواسطة استعمال القوى الكهربائية والراديو والسينما. ويبدو أثر العلم كذلك في الصناعة بواسطة استعمال المكائن والقوى الأخرى. وقد نتج عن ذلك زيادة في الإنتاج وقلّة في ساعات العمل سهل معها التهيؤ للحروب أكثر بكثير مما كان عليه في الماضي. وقد أدى ذلك أيضاً إلى استبقاء الشباب في التعليم مدة أطول مما كانت في السابق. ونتيجة لتقدم العلم أصبح في مقدورنا نشر المعرفة الصحيحة بين الناس كما أصبحنا قادرين على تضليلهم كذلك عن طريق الصحافة والسينما والراديو. وعن طريق العلم، كذلك أصبح من الصعب (بالنسبة للسابق) أن يتخلص الناس من سيطرة الحكومة التي لا يرغبون فيها. إن كل مظاهر حياتنا اليومية ومؤسساتنا الاجتماعية إنما هي نتيجة للعلم. تلعب الدولة في الوقت الحاضر دوراً كبيراً فيما يختص بالتقدم العلمي. أما في الماضي فقد سعت الدولة لمحاربة العلم ورجاله. وروسيا الحديثة مثل رائع لاستخدام العلم في خدمة الدولة. ولا يسهل التفكير بإمكانية النزاع بين الحكومة الروسية وبين علمائها ذلك لأن للدولة الروسية من القوة المطلقة ما لم يحلم به طغاة الماضي.

لم يكن مركز العلم في الماضي غريباً إذا ما عرفنا الظروف التي أحاطت به. فقد اكتشف رجال العلم أموراً لا تتفق والمألوف من التقاليد ومهدوا السبيل للشك فيما كان شائعاً من الآراء وجردوا كثيراً من المعتقدات عن هيبتها القديمة. من ذلك مثلاً المعتقد القديم القائل بأن الشمس إنما هي حجر أحمر ملتهب

وأن القمر مكوّن من مادة ترابية. لقد اضطهد صاحب هذا الرأي (وهو فيلسوف يوناني) وطرد من آثينا حيث كان قوله هذا مناقضاً لمعتقد الناس السائد آنذاك والقائل بقدسية الشمس والقمر. فاعتبرت تعاليم هذا الفيلسوف كفراً. لقد كانت القوى التي أوجدها العلم للتغلب على الطبيعة هي العامل الوحيد الذي أدى تدريجياً إلى التساهل مع العلماء. فكانت هذه الطريقة ولا شك بطيئة السير ولكنها مضمونة المفعول.

إن شعور بعض الناس ضد العلم في الوقت الحاضر ليس غريباً. ولعل ذلك ناتج عن المخاطر التي تعرضت لها الحياة الإنسانية نتيجة لفلق الذرة وظهور الأسلحة البكتريولوجية. ولكن مهما كان شهور بعض الناس فيما يتعلق بهذه الأخطار فإنهم لا يستطيعون استئصال العلماء ما دام ممكناً حدوث الحرب حيث أن أحد الطرفين المتحاربين يستطيع أن يفوز على الخصم في الحرب بمدى فتك أسلحته التي يمده بها العلم. فالعلم من حيث هو معرفة شيء حسن بذاته. والعلم من حيث هو فن يطبق على الحياة تتوقف أهميته على الغاية من استعماله. فالعلم إذن (من ناحية الشر والخير) شيء محايد لا ينبغي أن يلام أو يمدح، أي أنه ليس خيراً بذاته ولا شراً بذاته. يتوقف ذلك كما ذكرنا على غاية الشخص الذي يستعمله.

لعل أثر رجال العلم في الحياة العامة للمجتمعات (على الرغم من عمقه وبعد مداه) أقل ظهوراً من أثر الساسة. فالساسة في أيامنا هذه أكثر تأثيراً في الحياة منهم في أي دور من أدوار التأريخ البشري. وأن علاقتهم برجال العلم تشبه علاقة الساحر

بالجني الذي يتبع أوامره في قصص ألف ليلة وليلة.

إذ يعمل الجني الكثير من الأمور المدهشة التي لا يستطيع الساحر عملها دون مساعدته. ولكن الجني يعملها بإيحاء من الساحر لا بدافع ذاتي من نفسه. وكذا الحال عند علماء الذرة في عصرنا الحاضر، تعتقلهم الحكومة وهم في بيوتهم أحياناً وفي مختبراتهم أحياناً أخرى وتملي الدولة عليهم ما تريد. أي أنهم عبيد للجانب الذي يضعون أنفسهم تحت تصرفه. أما رجال السياسة فعلى العكس من ذلك. كان في حياة لنين شيء كثير من المغامرات. فبعد أن قتلت الحكومة القيصرية أخاه أمضى لنين سنين في الفقر وفي المنفى. غير أنه استطاع (بأشهر قليلة) أن يصبح رئيس أمة من أعظم الأمم المعاصرة. ولم تشبه زعامته هذه زعامة كثير من الحكام الذين يستعملونها للإغراق في ملذاتهم الخاصة. بل كانت زعامة كيفت قطراً شاسعاً لمبدأ معين وغيّرت حياة سكانه طبقاً لذلك. وأضافت للعالم نوعاً جديداً من التنظيم السياسي أخذت آثاره تنتشر في أقطار كثيرة داعية إلى عهد جديد (يحبه بعض الناس ويكرهه بعضهم ولا ينكر أهميته أحد). لم يحلم بذلك كثير من القادة في التأريخ قال نابليون بأن الإنسان يستطيع أن يعمل كل شيء بالحراب ولكنه لا يستطيع الجلوس عليها. لقد برهن لنين بأنه في استطاعته أن يفعل ذلك.

لم يكن العظماء كافة نافعين للشرية، فقد كان بعضهم ضاراً. فبعضهم (مثل رجال الدين وعلماء الأخلاق) حاولوا أن ينشروا الرحمة ويقللوا من القسوة في معاملة الناس لبعضهم. وبعض العظماء (مثل رجال العلم) زودونا بمعلومات كثيرة متعلقة

بمعرفة قوى الطبيعة وهو شيء جميل بغض النظر في نية بعض الناس في سوء استعماله. وبعض الناس (مثل الشعراء العظام والموسيقيين والرسامين) قد خلعوا على الطبيعة جمالاً يتمتع به كثير من الناس. ولكن هناك غيرهم (قديرون في قواهم) قد عملوا خلاف ذلك. أنني لا أستطيع أن أجد أي نفع من وجود جنكيزخان أو أي نفع عمله روبيسبير. ولا أجد مسوغاً للاعتقاد بأني مدين إلى لنين. ولكن لكل من هؤلاء الرجال (النافعين وغير النافعين) صفات لا أرغب في زوالها من العالم، صفات التضحية والعزم والاستقلال الفكري وبعد النظر. يتوقف نفع هذه الصفات أو ضررها على أسلوب استعمالها.

ليس هناك فرق كبير (كما يظن بعض الناس) بين المجرمين الكبار وبين الساسة العظام. فلو استطاع الناس أن يستبدلوا الكابتن كيد والإسكندر الكبير عند ولادتهما لاستطاع كل منهما أن يأخذ شكل الحياة التي أخذها صاحبه. ويمكن أن يُقال الشيء نفسه فيما يختص ببعض الفنانين. إنه يمكن أن يُقال باستحالة وجود أي إنتاج كبير في العالم الحديث وربما في العالم في المستقبل القريب إذا كان الاعتماد منصباً على نشاط الفرد وحده دون مؤازرة المؤسسات الاجتماعية. ولكن من الجهة الثانية إذا استطاع الفرد أن يجعل نفسه رئيساً للدولة مثل لنين أو محتكراً كبيراً مثل روكفلر أو مالياً كبيراً مثل بيير بونت موركان الكبير يستطيع أن يترك آثاراً كبيرة في العالم الذي يعيش فيه ويستطيع (إذا كان رجل علم) أن يقنع بعض الحكومات بأن إنتاجه نافع في الحروب. غير أن الرجل الذي يعمل دون مساعدة منظمة ما لا

يستطيع أن يشق طريقه في الحياة على الشكل الذي يستطيع أن يعمله عندما تؤازره بعض المؤسسات الاجتماعية. إن هذا الشيء ينطبق على رجال العلم كما ينطبق على غيرهم من الناس. لقد قام رجال العلم في الماضي بعملهم وهم معتمدون على أنفسهم فقط. غير أن زملاءهم في الوقت الحاضر يحتاجون إلى أجهزة ووسائل لا يستطيعون القيام بها بأنفسهم ولكنهم يحصلون عليها بسهولة عن طريق كسب ود الحكومة أو (كما هي الحال في الولايات المتحدة) عن طريق إقناع رجال المال. وعلى هذا ليس العالِم عاملاً مستقلاً وإنما هو جزء من منظمة كبرى. إنه لمن سوء الحظ أن يحصل ذلك حيث أن الأمور التي يستطيع عظماء الناس القيام بها في عزلتهم تكون عادة أكثر نفعاً من الأشياء التي يقومون فيها بمساعدة منظمات اجتماعية. ليس من السهل على الفرد في الوقت الحاضر أن يغير حياة الناس (كما سبق وذكرنا) إلاّ إذا كان سياسياً ساعدته ظروفه على قيادة الدولة أو عالماً يبيع إنتاجه للحكومة فيخدم مصالحها.

لا ينطبق هذا على العلماء والعباقرة فقط بل على كل فرد له نبوغ معين مهما كان ضئيلاً. لقد ظهر (في العصور التي امتازت بعظماء الشعراء) شعراء أقل عظمة منهم ويصدق الشيء نفسه على الفنانين والرسامين. وقد ظهر كِبار الموسيقين الألمان في وقت كان الناس فيه يميلون إلى الموسيقى. وقد وجد آنذاك من هم أقل عبقرية في الموسيقى من هؤلاء. كان الشعر والرسم والموسيقى أموراً أساسية في الحياة الثقافية للناس كما هي الحال في الألعاب الرياضية في الوقت الحاضر. ويصدق الشيء نفسه

على حياة الأنبياء العظام إذ إنهم استطاعوا الظهور في الوقت الذي وجد فيه كثيرون أقل شهرة منهم. إن قلّة ظهور أمثال هؤلاء في الوقت الحاضر إنما هي نتيجة لتركيز السلطة وتنظيم المجتمع إلى درجة شل فيها النشاط الفردي. ويرجع ازدهار الفن في الماضي إلى التنافس في المجتمعات الصغيرة (مثل المدن اليونانية في الماضي والمدن الإيطالية في عهد النهضة وحُكام المقاطعات الألمانية في القرن الثامن عشر حيث كان لكل أمير موسيقاره الخاص). وعن طريق تنافس هؤلاء الموسيقاريين ظهر باخ وأضرابه.

والتنافس أمر محمود في مثل هذه القضايا. وقد لعب دوراً كبيراً حتى في بناء الكاتدرائيات حيث حاول كل راهب أن يجعل كاتدرائيته تفوق كاتدرائيات الآخرين. إن المدن الحديثة في حاجة ماسة إلى هذا النوع من التنافس ليس فيما يختص بفن البناء فقط بل وفي الموسيقى والرسم والأمور الفنية الأخرى. ولكن هذا الأمر يصعب تحقيقه في الوقت الحاضر حيث يسود الاستعمار ويعوز التحرر كثيراً من الشعوب وتنتشر الأنانية بين الأفراد والجماعات. ولكن مع هذا ينبغي الاعتناء ببث روح التنافس المحلي على شكل لا يفقد الناس حسهم في ضرورة التعاون.

لقد عاش الإنسان المتوحش على شكل لم يكن للمجتمع أثر كبير في تحديد نشاطه. إذ كان نشاط الأفراد كافة تقريباً منصباً على الصيد والحرب. وإذا شعر الفرد بميل نحو الطب كان كل ما ينبغي عليه أن يعمله في هذا الصدد هو أن يتصل بشخص مشهور بمهنة الطب. وإذا كان لفرد من الأفراد مواهب أخرى استطاع أن

يستعملها في فنون أخرى كأن يدخل مثلاً بعض التحسينات على الأسلحة أو بعض التعديلات في المهارات المتعلقة بالصيد. كل هذه الأمور جعلت التعاون بين أفراد المجتمع ممكناً وضرورياً. غير أن حياة الرجل الحديث تختلف عما كانت عليه في الماضي إذ أن المجتمع الحديث يحد كثيراً من أوجه نشاطه. فإذا غنى الفرد في الشارع مثلاً اعتبر سكراناً وإذا رقص في وسط الشارع مسكه شرطي المرور لعرقلته وسائل السير. يصرف الفرد يومه (إلاً إذا كان محضوضاً) بعمل ميكانيكي نمطى تنقصه اللذة الفنية. ويكون اهتمام الفرد فيه منصباً على الأجرة التي يحصل عليها لا على العمل ذاته. هذا إلى أن الفرد ليس له متسع كاف للراحة كما في الماضي. وهو بالإضافة إلى ذلك (نتيجة لنوع الحياة الحاضرة) يوزع تفكيره بين اليوم والغد. فكل شيء في حياة الفرد في الوقت الحاضر يقرب من الميكانيكية والنمطية.

لقد حاول التنظيم النازي وضع الناس في قوالب معيّنة وفقاً لأهواء الدولة. وكان التركيز السياسي محكماً لا يسمح للأفراد بالشذوذ عنه إلاً على الشكل الذي تريده الدولة نفسها. فخضع الناس (في الظاهر على الأقل) خضوعاً منقطع النظير لأمر الدولة. وظهر الفنانون ورجال العلم تشجعهم الدولة مستغلة مواهبهم لمصالحها. يتأثر الفرد كثيراً باتجاه الدولة التي يخضع لها حيث ازداد تركيز السلطة عما كان عليه سابقاً وزادت أهمية المدن الكبرى والعواصم وأخذ الناس يقصدونها للتعبير عن مواهبهم. فإذا حاول شخص ما أن يكون رساماً (وآنس في نفسه مواهب كافية) لا يستطيع أن يبرز عن طريق منافسة من هم على

شاكلته في المكان الذي يسكن فيه فقط بل عليه أن يذهب إلى بعض المؤسسات المشهورة في الرسم وينتمي إليها ليظهر مواهبه. وكثيراً ما يفقد ثقته بنفسه عندما يتصل مباشرة بكبار الفنانين وقد يترك الفن جانباً وينهمك في الملذات المادية. ذلك لأنه لا يستطيع أن يحصل على تدريب فني في المدينة التي يسكن فيها (إذا كانت صغيرة) عكس الحال في إيطاليا إبان عصر الأحياء.

ينبغي إذن (لكي ننقذ الحياة من جمودها) أن نوجد وسائل عن طريقها يستطيع الفرد أن يتمتع بنشاطه العقلي والفني وأن يعبر عنهما لا في الأمور التافهة ولكن في القضايا الهامة في المجتمع الذي يعيش فيه. لا ينبغي أن يفسر قولي هذا بأني أدعو إلى نبذ التنظيم الحديث إنني أؤمن بالتنظيم كثيراً بقدر ما أؤمن بالحرية الفردية. إنني أدعو إلى تنظيم مرن لا يقضي على حرية الفرد في التعبير عن نفسه. وإلى حرية تتقيد بالتنظيم وتتجه بالاتجاه الذي يريدها أن تتجه فيه.

الفصل الرابع

النزاع بين التقدم الصناعي وطبيعة الإنسان

يختلف الإنسان عن غيره من الحيوانات اختلافات كثيرة منها أن الإنسان كثيراً ما يرغب في القيام بعمل قد لا يكون ذلك العمل مرغوباً فيه بحد ذاته بل لكونه وسيلة لغايات أخرى خارجة عنه. أما الحيوانات (من وجهة نظر علماء الحياة) فتعمل بعض الأعمال لغايات معيّنة فقط فتبني الطيور عشوشها وكلاب الماء سدودها نتيجة لغرائزها الموروثة[1] لا لأنها تدرك منافع ما تقوم به إدراكاً عقلياً. هذا أن الحيوانات لا تستطيع التحكم إرادياً بدوافعها ولا السيطرة عليها. أما الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يستطيع إخضاع دوافعه الموروثة لتفكيره وإرادته ولكن إذا قام الإنسان بعمل لا تستطيع طبيعته أن تتحمله فإنه يتعرض

---

(١) لقد ثبت بالتجريب لدى بعض المشتغلين بعلم الطيور بأن كثيراً من أعمالها التي تعزى عادة لغرائزها إنما هي مبنية على تغييرات في البيئة التي تعيش فيها الطيور. لقد أثبت الأستاذ ريفان في كتابه المسمى «لغز هجرة الطيور» بأن عملية بناء العشوش والهجرة وغيرهما أمور تتعلق بتغيرات معيّنة (تتعلق بالموسم وبالريح والبرد والحر) تحصل في البيئة الخارجية للطير ولا علاقة لها بغرائزه ـ إن صح وجود مثل تلك الغرائز في طبيعة الطير. (المترجم)

لعقاب نفسي. إن هذا العقاب لا يمكن التخلص منه تماماً في الوقت الحاضر ولكن من المستطاع أن تخف حدته عن طريق التنظيمات الاجتماعية.

تعرّض الإنسان القديم لنزاع بين الوسائل التي استعملها لإشباع حاجاته وبين دوافعه الموروثة. غير أن شدة ذلك النزاع كانت أخف في الماضي منها في الوقت الحاضر. كان الصيد والحرب والتناسل أموراً ضرورية لبقاء الإنسان ولارتقائه سلم التطور. وكانت تلك الأمور مرغوباً فيها لذاتها. لقد أصبح الصيد في الوقت الحاضر نوعاً من الرياضة يمارسها ذوو اليسار.

غير أن الإنسان القديم (وإن كان نشاطه منصباً على القيام بأعمال مرغوب فيها لذاتها) لم يفقد نشاطه المتعلق بالقيام بأمور هي وسائل لأمور خارجة عنها. من ذلك القيام بعمل الوسائل والأدوات الحجرية (في الأدوار الأولى من تطور الجنس البشري). وقد تلا ذلك تطور مستمر في الوسائل كانت بعض نتائجه ما نحن عليه في الوقت الحاضر. وقد كان ممكناً في الدور الحجري الأول أن يكون التلذذ في الإبداع الفني والتمتع بالقوة ممتزجين بشكل لا يسهل معه تمييزهما. ففي الحالات التي تكون فيها العلاقة بين الوسائل والغايات واضحة ومباشرة تصبح الوسائل نفسها مرغوباً فيها إذا كانت الغايات مرغوباً فيها. فالطفل الذي يتزحلق على الجليد يرى لذة في عملية التزحلق نفسها متحملاً المشاق الجسمية ولا يتسرب له السأم إلاّ نادراً. غير أننا (في حالة عدم تلذذ الطفل الذاتي في عملية التزحلق) إذا حاولنا إقناعه بضرورة القيام به على طريق تعويضه عن ذلك بمكافئة تقاعدية

عند بلوغه السن القانونية فإن قواه تتضاءل ويفقد نشاطه وتحمسه للتزحلق.

يستطيع الدافع الإبداعي أن يوجد نشاطاً أطول وأعمق من النشاط الذي يدفع الطفل للتزحلق على الجليد ويمكن أن يكون مثمراً في الوقت نفسه. يقضي كثير من الناس سنين متعبة ومحفوفة بالمخاطر والفقر محاولين تسلق قمة افرست أو بلوغ القطب الجنوبي أو التوصل إلى اختراع عملي. يعيش هؤلاء طوال حياتهم منسجمين مع دوافعهم كانسجام الطفل مع أدواته المتعلقة بالتزحلق على الجليد على شرط أن تكون رغبتهم قوية في تحقيق غاياتهم وأن يبذلوا مجهوداً مناسباً للتغلب على الصعاب.

بدأ استعمال الرق يباعد بين غايات صاحب العمل وبين غايات العامل فبنيت الأهرام لتلذذ الملوك وليس لإشباع حاجات معيّنة عند العمال. والرقيق لا يشارك سيده في اللذة الناتجة عن عمله وإنما يقوم بالعمل خوفاً من سوط رئيسه. كما أن الأرقاء وعبيد الأرض لا يجدون لذة حقيقية عند قيامهم بزراعة الأرض. بل يتمتع بها من يقتطف ثمرة أتعابهم.

لقد ازداد عدد أفراد الطبقة العاملة نتيجة لتضاؤل عبودية الأرض (قبيل ظهور الثورة الصناعية) وأصبح في مقدور هذه الطبقة من المنتجين أن تجد لذة في ما تنتجه من الصناعات اليدوية. فأدى ذلك من الوجهة السياسية إلى ظهور نوع من الديموقراطية الفردية حبذ وجودها الرئيس جفرسن ودعاة الثورة الفرنسية. واتجه الميل إلى تحديد سلطات الدولة وتقليص أثر التنظيمات الكبيرة التي

شجعتها الثورة الصناعية فيما بعد. وقد أدت الثورة الصناعية إلى التباعد بين أهداف المنتج وأهداف صاحب الإنتاج. ففي المعامل الكبيرة (مثل معامل إنتاج السيارات) تكون غاية صاحب المعمل هي عمل السيارات لكسب الربح بينما يكون هدف العمال هو الأجور. أننا لا ننكر احتمال تلذذ بعض العمال في عملية الإنتاج نفسها غير أن معظمهم لا يتلذذون على ما نظن إلاّ بزيادة أجورهم وتقليل ساعات عملهم.

ليس سهلاً (في الوقت الحاضر) فصل ظاهرة ملل العمال هذه عن طبيعة التصنيع الحديث ونمو الشركات الكبرى. هذا إلى أنه لم يصبح في تصور أي شخص أن يعمل بمفرده جزءاً كبيراً من أجزاء السيارة مثلاً. غير أنه يستطيع أن يساهم في صنع جزء صغير من أجزائها. ونظراً لسعة حجم المعمل الحديث تفقد جماعة العمال التي تشترك في عمل السيارة الشعور بوجود وحدة عامة تربطها بصاحب المعمل أو غاية مشتركة يهدف الجميع إلى تحقيقها. هذا لا يعني انتفاء وجود تقارب بين العمال فيما يختص بإدارة المعمل. غير أن هذا التقارب لا يتعلق بالإنتاج بل يعود إلى زيادة الإنتاج ولكن عندما يصبح المعمل كبيراً يكون الميل متجهاً عادة نحو زيادة الربح فقط. وقد يعوَّضُ عن اللجوء إلى استثمار لذة العمال في عملهم أو جعلهم أكثر مهارة في العمل بواسطة نشر الإعلانات وبث الدعاية للحصول على الأرباح الطائلة.

نتجت الرغبة عن القيام بالأعمال اليدوية عن عاملين: أحدهما (وهو الأقدم) اكتشاف النقود والثاني هو الإنتاج على

نطاق كبير. لقد أدى اكتشاف العملة إلى تقدير قيمة السلعة عن طريق ثمنها. وهذا الثمن ليس شيئاً ذاتياً في السلعة نفسها ولكنه مأخوذ بالنسبة لقيمة شرائها حيث تشترك معها سلع أخرى. هذا لا يعني أن المنتجات كافة قابلة للتبادل. فهناك منتجات لم تعمل لغرض التبادل وإنما تقدر أقيامها بالنسبة لذاتها لا بالنسبة لقيمتها الشرائية. فحدائق الفلاحين في بعض القُرى (كثيراً ما تكون جميلة وربما كلف بناؤها جهداً كبيراً) غير أن أصحابها لم يقصدوا من بنائها الحصول على أرباح مادية. ويصدق الشيء نفسه على ملابس الفلاحين القديمة التي قلّ وجودها الآن وكثر اهتمام السواح بها. ويصدق الشيء نفسه على معابد اليونان ومخلفات القرون الوسطى. لقد حلّت النقود تدريجياً محل المقايضة فأدى ذلك إلى أن يقدر ثمن السلع بمدى نفعها بغض النظر عن قيمتها الذاتية.

وقد أدى الإنتاج الكبير إلى نتائج مهمة في هذا الباب. ولتوضيح بعض تلك النتائج سنضرب لذلك مثلاً. فلو فرضنا أنك تنتج أزراراً للملابس. أنك بطبيعة الحال لا تحتاج إلاّ إلى عدد معيّن من تلك الأزرار (مهما كانت جميلة) لاستعمالك الشخصي. أما ما تفعله بالأزرار الزائدة عن استعمالك الشخصي فهو إنك تستبدلها بسلع تسد حاجاتك الأخرى مثل الطعام والسكنى وغيرهما. يتضح أن العلاقة بين الأزرار وبين المنتجات الأخرى تكاد تكون معدومة اللّهُمَّ إلاّ علاقة الاستبدال ذاتها. وبعبارة أخرى أن ما يهمك من الأزرار هو قيمتها المادية. وبعبارة أدق أنك لا تهتم بالقيمة المادية للأزرار وإنما يتعلق اهتمامك

بالربح الناتج عن بيعها. أي أنك تهتم بزيادة بيع الأزرار على تكاليف إنتاجها الذي قد يقلل من القيمة الذاتية للأزرار. تحصل القلة في الأهمية الذاتية للمنتجات عادة عندما ينتشر الإنتاج الكبير ويحل محل طرق الإنتاج الفردي.

وللتنظيم الحديث بالإضافة إلى ما ذكرنا نتيجتان أخريان يتجهان عادة إلى تقليل رغبة المنتج في الإنتاج. إن إحدى هاتين النتيجتين هي البعد الزماني بين الإنتاج وبين الربح المتوقع من العمل أما النتيجة الثانية فهي الفصل بين الإدارة والعمل. ولتوضيح الأولى دعنا نضرب مثلاً. لنفرض أنك مشغول في الوقت الحاضر بإنتاج جزء من مادة معيّنة (ولتكن سيارة) يحاول صاحب معمل السيارات الذي تشتغل فيه دفعك لبذل أقصى جهودك في العمل عن طريق القول بأن تصدير السيارات أمر ضروري للحصول على الطعام. وإذا بذلت (بالاشتراك مع زملائك العمال الآخرين) جهوداً جبارة في هذا السبيل إلى الحد الذي يجعل الكمية المستوردة من الطعام تزيد على حاجات الشعب للاستهلاك. وفي هذه الحال لا يتمتع العمال وحدهم بالكمية الزائدة من الطعام بل يشاركهم فيها أربعون مليون نسمة (سكان إنكلترا). وإذا صادف أن تعطلت يوماً واحداً عن العمل فليس من المنظور أن يؤثر ذلك في اقتصاديات البلد تأثيراً بالغاً. ولكن مع هذا فلتغيبك عن العمل تأثير يتوقف مداه على نوع العمل ذاته وعلى مقدار أثره في الأعمال الأخرى. وللمسؤولية الأدبية (أكثر من غيرها) أثر بالغ في جعل المرء يشتغل مدة أطول من المدة التي يتطلبها عمله ولكن إذا أصبحت الضرورة للعمل

ماسة وآنية أصبح القيام بالعمل السريع محتماً. ففي حالة حدوث عطب لسفينة ما وهي تمخر عباب البحر يطيع الملاحون الأوامر الصادرة من رئيسهم بلا تردد ولا تفكير حيث يدفعهم غرض مشترك واحد سهل التحقيق وليست وسائل تحقيقه بصعبة الفهم. ولكن إذا اضطر الربان (كما تضطر الحكومة) لتوضيح أغراضه بمحاضرة يلقيها على الملاحين فإن احتمال غرق السفينة قد يتحقق قبل أن ينتهي الربان من إلقاء محاضرته.

هناك مجال للنزاع (في المجتمعات كافة الاشتراكية منها والرأسمالية) بين المصلحة العامة وبين مصالح الأفراد والجماعات. وإن كل إجراء يتخذ لحماية المصلحة العامة (أو لحماية أية مصلحة أخرى) لا يخلو من الإساءة إلى مصالح بعض الأفراد والهيئات الأخرى. فالارتفاع الحاصل في قيمة الفحم الحجري مثلاً يعود نفعه على أصحاب المناجم. وقد يتعدى ذلك فيسبب ارتفاعاً في أجور العمال. غير أن ذلك الارتفاع مضر بمصلحة المستهلكين. وعندما تقوم الحكومة بتحديد أسعار الفحم فإن ذلك لا يخلو من أن يحدث أضراراً بمصالح بعض الناس (أصحاب المناجم والعمال مثلاً) وكثيراً ما تكون الإجراءات الحكومية بعيدة من أن تمس حياة العمل اليومية وحاجاتهم المباشرة لذلك يسهل كثيراً التذمر منها. أما المصالح المركزة فأقدر عادة على استهواء بعض الناس من الإجراءات الحكومية ولهذا لا تستطيع الحكومة مقاومة التنظيم الذي يقوم به أصحاب المعامل الكبرى والشركات. وإذا حاولت مقاومته أصبحت ممقوتة ومنتقدة. فالحكومة التي تعمل للصالح العام

تتعرض عادة للدعاية السيئة التي يقوم بها ذوو المصالح الخاصة. ونشاهد هذه الحالة واضحة في البلاد الديموقراطية حيث يزداد تدخل الحكومة في تنظيم علاقات الأفراد.

إنه يمكن القول بأن الحكومة في البلاد الديموقراطية لا تعمل دائماً للمصلحة العامة. لقد مرت معنا الإشارة إلى بعض مساوئ الحكومة البروقراطية[1] فلا حاجة لإعادة ذلك. أود أن أتطرق الآن إلى المساوئ المتعلقة بصلات أفراد الحكومة مع بقية أفراد الشعب. ففي المجتمعات المنظمة تنظيماً عالياً تكون لأفراد الحكومة (من الوزراء حتى الفراشين مصالح خاصة كثيراً ما تتعارض مع مصلحة المجتمع. لعل أوضحها هو ميل كثير من الموطفين إلى الظهور بمظهر المسيطر وغير المكترث بمصالح المراجعين ولهذه الظاهرة دوافع نفسية ظاهرة ومعيّنة. فالموظف الذي يرفض القيام بعمل من الأعمال لأحد المراجعين يشبع الميل للظهور بمظهر القوي من جهة وعدم المكترث من جهة أخرى. ولذا يظهر بمظهر المسيطر على مصالح من وضع لخدمتهم. ولنضرب مثلاً آخر لذلك خذ مثلاً الإجراءات التي اتخذت لمقاومة قلّة الطعام في إنكلترا أثناء الحرب العالمية الثانية. يصعب على الشخص أن يحصل على مقدار أكثر مما هو مخصص له من الطعام. وإذا أراد الحصول على ذلك وجب عليه أن يضاعف عمله على شرط أن يُسمح له بذلك. ويشذ عن هذه القاعدة الزراع. ولكن أكثر الناس من غير المزارعين ينبغي عليهم

---

(١) الحكومة البروقراطية حكومة تحكمها أقلية تهتم كثيراً بمصالحها الخاصة وتنسى مسؤولياتها تجاه الناس. **(المترجم)**

أن يشتروا طعامهم. وإذا لم تتدخل الحكومة في تحديد الأسعار تتعرض تلك الأسعار إلى ارتفاع مستمر وقد لا يسلم من سوى التغذية نتيجة لذلك إلاَّ الأغنياء. ومع أن كثيراً منا يسلِّمون بذلك فإن القليلين منا يشعرون بأهمية الخدمات التي قدمتها العاملات في مخازن الأطعمة الحكومية. لقد كان التذمر كبيراً من معاملتهن إلى حد أن صورهن البعض (على غير حق) للرأي العام بأنهن طاغيات وجاهلات.

تظهر صعوبة انسجام الحرية الفردية مع التدخل الحكومي لتنظيمها واضحة أثناء الحرب. ففي حرب صعبة (يتعرض فيها كيان الأمة للخطر) يسهل تناسي حريات الأفراد ويتجه الميل نحو إجبارهم على العمل. ولا يصعب أيضاً إنقياد الأفراد لأوامر الحكومة إذا اعتقدوا بقدرة الحكومة على خدمتهم وبحسن نواياها. غير أن الحرب حالة سلبية هادمة لا ينبغي الالتجاء إليها لبث الوحدة بين المواطنين. ولكن مع هذا فليس هناك من شك في أن شيئاً يشبه الشعور بالوحدة القومية يمكن أن ينتج عن الخوف من الحرب (وليس الخوف من الحرب في جميع الأحوال شيئاً حسناً) ولو أن الحرب لا يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان.

يعتبر دافع المنافسة من الدوافع التي لا نستطيع نكرانها. غير أن الاشتراكيين بصورة عامة لا يعيرونه أهمية تذكر ويعتقدون بأنه أحد مساوئ المجتمع الرأسمالي. ولكن مع هذا فقد التجأت الحكومة الروسية إلى المنافسة في تنظيم الصناعة فطرق استاخانوفتيش (التي بموجبها يكافأ بعض العمال نتيجة لأعمالهم

الباهرة ويعاقب بعضهم لتقصيرهم) إنما هي شيء يشبه بعض الإجراءات التي اتخذتها بعض المنظمات الرأسمالية وقاومتها نقابات العمال فتغلبت عليها. غير أن المرء يستطيع أن يقول بأن لهذا النوع من الإجراءات فوائد في روسيا مثل الفوائد التي ادعتها الرأسماليات ولها مضار وضحتها نقابات العمال. غير أن هذه الإجراءات تفشل في مهمتها حينما تحاول علاج بعض المشاكل. ومع أن المنافسة (في كثير من أشكالها) ليست مقبولة ولكنّ لها بنظري دوراً أساسياً تلعبه فيما يختص ببذل النشاط الفردي للعمل. وهي بالإضافة إلى ذلك كثيراً ما توجد منافذ (لتعبير الشخص عن بعض غرائزه) ليست ضارة نسبياً. أي أنها تسمح لبعض الدوافع الغريزية التي قد تؤدي إلى الحرب للتعبير عن نفسها بطريق لا تؤدي إلى الحرب. غير أن المنافسة سلاح ذو حدين وأن أحسن أنواعها ما كان مشجعاً للمنافسين لكي يبذلوا قصارى جهدهم لتحسين منتجاتهم وتوضّح لعبة كرة القدم ما نقصده بهذا النوع من المنافسة.

لقد جرت حديثاً في بريطانيا محاولة ناجحة لدفع الناس إلى العمل عن طريق اللجوء إلى الحس بالقيام بالواجب. وللشعور بالواجب أهمية خاصة في الوقت الحاضر. فاللجوء إليه أمر ضروري دون شك في أوقات الأزمات خاصةً. ليس الشعور بالواجب (مهما كانت فائدته أحياناً) حلاً مستديماً لمشاكل العمل. ولا يمكن أن يستمر نجاحه لمدة طويلة من الزمن. إنه يتضمن شعوراً بالتعب وميلاً لمقاومته. والشعور المستمر بالتعب كثيراً ما يضعف الدوافع الطبيعية للعمل. وإذا استمر ذلك طويلاً فإنه

ينهك القوى ويستنزف نشاطها. وإذا لم يشجع وفقاً لبعض التقاليد الخلقية البسيطة (مثل القواعد العشر[1] فإنه ينبغي أن يشجع على أسس اقتصادية وسياسية معقدة وإلاَّ أصبح كثير من الناس منهوكي القوى ولا أباليين ومالوا إلى اعتناق بعض النظريات المغلوطة كالقول بأن هناك طريقاً قصيرة[2] لتحقيق العدالة الاجتماعية. يدفع الناس إلى العمل عادة إما بالأمل في النجاح فيه أو بالخوف من الفشل في عدم إنجازه. فإذا أردنا استعمال هذين الدافعين لحث الناس على العمل وجب أن يكون كل من الأمل والخوف حقيقتين وسهلي التناول لكي يكونا فعّالين.

ولهذا السبب تكون هستيريا الدعاية (أو الدعاية التي تسبب هستيريا) ذات أثر كبير في العالم الحديث. يعرف الناس بصورة عامة بأن حياتهم اليومية متأثرة بحوادث تحصل في أماكن بعيدة عن الأماكن التي يسكنونها. غير أنهم لا يعرفون أسباب حدوثها ـ اللَّهُمَّ إلاَّ طبقة صغيرة من الاختصاصيين ـ فكثير من الناس لا يعرفون أسباب قلّة الرز والموز والبيض في إنكلترا. فإذا وضعنا اللوم على الهند أو على الروتين الحكومي أو على النظام الرأسمالي أو على الاشتراكية فإننا نتهرب من معرفة أسباب المشكلة ولا نواجهها. إن هذا النوع من التعليل ناتج عن ميل

(١) القواعد العشر قواعد ارتضتها كل من الديانتين اليهودية والمسيحية لتعديل سلوك الناس وحثهم على عمل الخير.

(٢) لعل المقصود بالطريق القصيرة هنا الثورة أو ما يعرف عادة بكفاح الطبقات. **(المترجم)**

فطري لدى الإنسان يحاول بواسطته البحث عن قوى لا علاقة لها بنفسه ليلقي عليها اللوم في حالات الضيق والحرج. هذه الحال تشبه الوضع الذي كان عليه الإنسان البدائي حين كان يعزو الأمراض إلى وجود أرواح شريرة. إن تفكيرنا في الأمور الاجتماعية لا زال يشبه تفكير البدائيين المتعلق بمصدر الأمراض وأساليب علاجها.

إن إلقاء اللوم على عدو خارجي (يفرض وجوده) لتفسير ما يؤلمنا في حياتنا اليومية لشيء مضر. إذ أنه يستميل نشاطنا الغريزي البدائي بطرق نتائجها وخيمة. وهناك طُرق كثيرة للقضاء على اللجوء إلى البغض في هذه الأمور لعل أحسنها إصلاح الأخطاء والشرور التي تدعونا للبحث عن مثل هذا العدو. وإذا لم يكن ذلك ممكناً ففي الإمكان أحياناً نشر معرفة الأسباب الحقيقية للشرور. غير أن ذلك ليس سهلاً خصوصاً نشر معرفة الأسباب الحقيقية للشرور. غير أن ذلك ليس سهلاً خصوصاً في الأوضاع السياسية والاجتماعية الحاضرة حيث يشجع هذا النوع من الهستيريا. يعرف الكثيرون منا في الوقت الحاضر ما تحتاجه بريطانيا ويعرفون كذلك بعض وسائل إصلاح اقتصادنا القومي الذي يتلخص في زيادة الإنتاج وقلّة الاستهلاك وتشجيع التصدير. غير أن الكثيرين منا قد يجهلون الوسائل المؤدية لزيادة الإنتاج وقلّة الاستهلاك وتشجيع التصدير. ولا تتحقق معرفة تلك الوسائل إلاَّ عن طريق دراسة مفصلة شاملة تقوم بها الحكومة والهيئات الخاصة والأفراد.

لا تسمح الدمقراطية بوضعها الحاضر إلاَّ للأقلية الضئيلة في

ممارسة الحقوق السياسية العامة على نطاق ملائم. لقد كانت الدمقراطية على عهد الإغريق (من وجهة نظرنا) مشوبة ببعض النقائص مثل عدم السماح للنساء والعبيد بالاشتراك في الحياة العامة للناس. ولكن بالرغم من تلك النقائص كانت الدمقراطية الإغريقية أكثر دمقراطيةً (في كثير من القضايا الهامة) من الدمقراطية الحديثة. لقد كان كل مواطن يوناني يصوّت تصويتاً مباشراً على القضايا العامة كافة ولم يكن له من يمثله غير نفسه. فهو ينتخب حُكامه بما فيهم القادة في الجيش ويحكم عليهم بالإقصاء مثلاً عندما لا يجدهم (بالاتفاق مع الأكثرية) صالحين. لقد كان ذلك ممكناً لأن عدد المواطنين كان قليلاً فسهل بذلك اتصال الأفراد اتصالاً مباشراً لمناقشة القضايا العامة وجهاً لوجه. لم يكن هذا النظام بنظري صالحاً على إطلاقه إذ كانت تمازجه بعض المساوئ. غير أن سماحه لكل فرد بالتعبير الحر عن رأيه لظاهرة تفوق كثيراً من المظاهر الدمقراطية في الوقت الحاضر حيث أصبحت علاقة الحاكم بالمحكوم مماثلة لعلاقة السيد بالمسود.

خذ مثلاً علاقة الشخص الاعتيادي في بريطانيا بأمير البحر. إن أمير البحر (من الوجهة النظرية على الأقل) عامل لدى الشعب (وهو مجموعة الأفراد الاعتياديين أي دافعي الضرائب). إن النواب (وهم ممثلو الشعب) يصوتون على أجور أمير البحر وينتخبون الحكومة التي لها السلطة المباشرة في أمر ترفيعه أو عزله أو غير ذلك. ولكن إذا حاول الفرد الاعتيادي الظهور بمظهر الآمر عند تعامله مع أمير البحر (كما هي الحال المعتادة

بين صاحب المعمل والعامل) فإنه لا يستطيع ذلك. فأمير البحر رجل عظيم اعتاد أن يظهر بمظهر المتسلط على الفرد الاعتيادي لا بالعكس.

إن هذه الظاهرة توجد لدى الموظفين كافة ولكن بدرجات متفاوتة. والموظفون يحاولون الظهور بمظهر السيد لا بمظهر المأمور عند التعامل مع أبناء الشعب. فإذا أردت مثلاً أن أسجل رسالة في دائرة البريد فإن لمأمور البريد في تلك اللحظة سلطة مالية يستطيع أن يقرر ما تحتاجه الرسالة من الطوابع. وإذا أردت شيئاً آخر أكثر تعقيداً من ذلك فإنه يستطيع أن يزعجني خصوصاً إذا كان في حالة نفسية غير عادية فقد يرسلني إلى شخص آخر يعيدني هذا بدوره له. ومأمور البريد هذا في الواقع خادم (من الوجهة النظرية) من خدام المصلحة العامة. غير أن الواقع يشير إلى أن الفرد الاعتيادي (وهو السيد من الوجهة النظرية على الأقل) يشعر بنفسه خادماً لرجل الجيش والبحرية والشرطة والموظفين الآخرين. وكلما كانت السيطرة الدمقراطية بعيدة عن الفرد الاعتيادي والإدارة العامة مركزة والرؤساء مُعيَّنين من المركز فإن شعور الفرد الاعتيادي بأهميته تقل. وهذا مناف للروح الدمقراطي.

إن معظم الشرور التي ألمعنا إليها ليست جديدة في تأريخ الجنس البشري. إنها موجودة منذ وجود الإنسان على وجه البسيطة. لقد كان الفقر والجهل والمرض منذ القدم نصيب الجماهير بينما تمتعت الأقليات المحضوضة بخيرات الطبيعة ومنتجات المجتمع. يبشر النظام الدمقراطي (من الوجهة النظرية)

بضرورة إزالة كل مساوئ الحياة الاجتماعية ويدعو إلى الحرية والمساواة بين الأفراد من الناحيتين المادية والمعنوية وهو يدعو كذلك إلى احترام الفرد وحريته ووجوب معاملته معاملة تشعره بأنه غاية بحد ذاته لا وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين. هذا المبدأ السامي ينطبق على أفراد الأمة الواحدة على القدر الذي ينطبق فيه على علاقات الأمم المختلفة.

لقد أصبح هذ المعتقد (الذي أحدث انقلاباً أساسياً في تفكير الجنس البشري) من الأمور المسلّم بها عند الكثيرين. وكانت المئة والخمسين سنة الماضية ميداناً رحباً لتحقيقه غير أن تحقيق هذا المبدأ على وجهه الأتم يحتاج إلى وقت وكفاح طويلين. ولعل صعوبة تحقيق هذا المبدأ ناتجة عن إغفال التفكير في استعمال الوسائل اللازمة إلى هذا الهدف. قد تستعمل وسائل لا تؤدي إليه أو قد تؤدي إلى عكسه. ففي محاولتنا تحقيق المساواة بين الناس قد نتذرع بذرائع لا تنسجم وإياها أو أنها ربما تحقق أهدافاً أخرى لا تقل أهمية عن المساواة كالعدل والإخوة والإنسانية. ومن يحاول أن يقارن بين المجتمعات المعاصرة والمجتمعات التي سبقتها يجد أن بعض المجتمعات القديمة كانت تفوق بعض المجتمعات الحديثة من حيث تحقيق بعض المُثُل الاجتماعية. هذا لا يعني بالطبع أن المجتمعات الحديثة لا تفوق المجتمعات القديمة من حيث تحقيقها لكثير من الإصلاحات الاجتماعية. ففي المجتمعات كافة (قديمة وحديثة) نقاط قوة ونقاط ضعف ومهمة المصلحين الاجتماعيين هي القضاء على نقاط الضعف. يظهر لأول وهلة بأن المساواة الاجتماعية لا تتفق

والحرية الفردية وشعور المرء بكرامته. إن شعور المرء بكرامته يعني معرفته لقيمته الذاتية وأهميته من حيث هو إنسان وعدم تضحيته لمصالحه في سبيل مصالح الغير. فإذا شعر الفرد بذلك أصبح عاملاً فعّالاً في تكوين رأي عام حسن وأصبح لا يميل إلى الخضوع لرأي لا يعتقد بصحته ونفعه حتى ولو كان صادراً عن الحكومة. إن هذا النوع من الشعور يجعل كلاً من التقدم الخلقي والعقلي ممكناً. أما إذا فقد الفرد ذلك فإنه يميل إلى الاعتقاد بصحة آراء الآخرين دون مناقشتها.

لقد جعل التقدم العلمي والصناعي الحديث التغلب على أعداء البشرية الثلاثة (الفقر والجهل والمرض) ممكناً. ولكي يقضي على ذلك تماماً ينبغي أن تُستعمَل الصناعة والعلم لأغراض إنسانية وإلاَّ انتفت إمكانية تحقيق العدالة الاجتماعية.

الفصل الخامس

السيطرة الحكومية والإبداع الفردي

يحتاج المجتمع الحديث (الذي ينزع إلى التقدم) إلى كل من التسيطر المركزي والنشاط الفردي والجماعي. إن فقدان السيطرة الاجتماعية يؤدي إلى الفوضى. كما يؤدي انعدام الإبداع الفردي إلى الركود. سأحاول في هذا الفصل الوصول إلى بعض المبادئ العامة فيما يختص بالقضايا التي ينبغي أن تسيطر عليها الحكومة والأمور التي ينبغي أن تترك للأفراد ونشاطهم. تمتاز كل المجتمعات بنوعين من الصفات: ـ النوع الأول الصفات الثابتة والثاني الصفات المتغيّرة. تكون الصفات المتغيّرة متصلة بالنشاط الفردي بينما تتعلق الصفات الثابتة بالسيطرة الحكومية. ويكون النشاط الفردي أما هادفاً أو إنشائياً. وعلى هذا يجب تشجيع النوع الثاني من هذا النشاط عن طريق المؤسسات الاجتماعية والحكومية. وكلما أصبح المجتمع أكثر تعقيداً أصبح نشاط الأفراد أكثر حاجة إلى التوجيه والإرشاد الحكومي. غير أن تدخل الحكومة سلاح ذو حدين: ـ فقد يوجه نشاط الأفراد توجيهاً سليماً وقد يضلله أو يحد منه ويكبته.

إن الأهداف الأساسية للحكومة بنظري ثلاثة هي الطمأنينة

والعدل والمحافظة. ولهذه الأهداف الثلاثة أهمية أساسية في جلب السعادة الإنسانية. غير أن أهميتها لا تكون بدرجة واحدة في جميع الأحوال إذ تتغير بالنسبة للظروف. وعلى هذا فقد تقتضي المصلحة العامة تضحية أحد تلك الأهداف (تحت ظروف معيّنة) في سبيل تحقيق الهدفين الآخرين. والآن لنتناول كلاً من هذه الأهداف ونبحثه على انفراد.

كانت الطمأنينة (أي حماية الحياة والملكية) دائماً أحد الأسس الهامة للدولة. ومع أن الدولة كثيراً ما تحاول حماية الفرد من الاعتداء فإن محاولتها لحماية الفرد من اعتداء الدولة نفسها لمعدومة. تعتدي الدولة على الفرد وتسيئ له تحت ستار الدفاع عن حقوقه وامتيازاته. وعلى هذا لا يشعر كثير من الناس بالطمأنينة. لقد نشأ في السنوات الأخيرة نوع جديد من الطمأنينة : ـ هو الطمأنينة ضد هجوم دولة معادية. وقد أخذت أهمية ذلك تزداد بمرور الزمن وتقدم العلم الذي نتج عنه تغيير كبير يتعلق بالحروب الحديثة والأسلحة المستعملة فيها. إننا نستطيع أن نقول بأن الفرد في الوقت الحاضر لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة ضد الاعتداء الخارجي إلاّ إذا تكونت حكومة عالمية واحدة تسيطر على الأسلحة كافة. سوف لا أتطرق لبحث هذه النقطة لأنها لا تمس الموضوع الذي أنا بصدده. غير أن الشيء الذي أود أن أشير إليه في هذه المناسبة هو أن الطمأنينة لا تتحقق على وجهها الأكمل إلاّ إذا تكوّنت الحكومة العالمية المشار إليها.

لقد كانت الطمأنينة الاقتصادية هدفاً من الأهداف الأساسية

للمشرّع الإنكليزي الحديث. وتتجلى هذه الطمأنينة عن طريق التأمين ضد البطالة والمرض والشيخوخة. لقد أزال هذا النوع من التأمين أعباءً ثقيلة عن كاهل العمال في مستقبل حياتهم. كما أن العلم الحديث نشر نوعاً آخر من الطمأنينة المتعلقة بقلة التعرّض للأمراض وبإطالة العمر وسهولة الشفاء من الأمراض عن طريق التقدم الطبي الحديث. فأصبحت الحياة في الأقطار الغربية أقل خطراً (إلاّ في وقت الحروب) عما كانت عليه في القرن الثامن عشر. كل ذلك راجع في أساسه إلى إجراءات حكومية كثيرة.

فالطمأنينة وإن كانت شيئاً حسناً بلا شك إلاّ أنها ليست دواءً لجميع الأمراض الاجتماعية. فالحياة المطمئنة قد لا تكون سعيدة. بل قد تكون حياة شقية ومملة. وكثير من الناس (خاصة في دور الشباب) يجدون لذة كبيرة في المخاطر بل يجد بعضهم لذة في الحرب للتخلص من الضجر. والطمأنينة بحد ذاتها دافع سلبي ينتج عن اختفاء دافع الخوف. والحياة الحسنة ينبغي أن يكون لها هدف إيجابي ناتج عن الأمل. وهذا النوع من الأمر النافع يتضمن المخاطرة وعلى هذا فهو يشتمل على دافع الخوف. وعلى هذا لا تكون جميع أنواع الخوف ضارة.

أما الآن فسنتطرق إلى العدل. لقد أصبح العدل (لا سيما العدل الاقتصادي) في الأيام الأخيرة وظيفة من وظائف الحكومة الهامة. وقد فُسّر العدل بأنه يعني المساواة إلاّ في الحالات التي تكون فيها المساواة غير نافعة. فالعدل السياسي (أي الدمقراطية السياسية) قديمة قدم الثورتين الأمريكية والفرنسية. غير أن العدل الاقتصادي هدف حديث وهو بحاجة ماسة إلى سيطرة حكومية

كبيرة. يعتقد الاشتراكيون (وهم على حق بنظري) بأن العدل الاقتصادي يتضمن ملكية الحكومة لوسائل الإنتاج الكبرى وتنظيم التجارة الخارجية. ويخالفهم أعداء الاشتراكية تمام المخالفة ويدعون بأن العدل الاقتصادي لا يتم عن طريق الحكومة. هناك حدود للعدل الاقتصادي يعترف بها (ولو ضمنياً) الجانبان (حتى الاشتراكيين المتطرفين). ولا يمكن أن تتحقق المساواة الاقتصادية بين الأمم الغربية وبين دون جنوب شرقي آسيا إلاً تدريجياً ومع الزمن وإلاً تنزّلت الدولة المرفهة إلى مستوى الدول الأقل رفاهاً دون ما نفع لها.

وللعدل (كما للطمأنينة) حدود لا يتعداها. والعدل أنواع بعضه ضارٌ كمحاولة العدل في جعل الناس كافة فقراء. إذ ليس من العدل تفقير الأغنياء إذا لم يكن في الإمكان جعل الفقراء أغنياء. ويصبح العدل ظلماً عندما (نحاول عن طريق تحقيق المساواة) أن نجعل الفقراء أكثر فقراً مما هم عليه. ويمكن أن يحدث هذا إذا كان مستوى التعليم واطئاً أو إذا انحطت مستويات الأبحاث العلمية. لقد كانت في الماضي عقبات تحول دون تحقيق العدل الاقتصادي في العالم. أما الآن (حيث الإنتاج على نطاق واسع) فلا مبرر لوجود الظلم الاقتصادي في الأمم الصناعية.

والآن لأتكلم عن المبدأ الثالث وهو المحافظة. المحافظة (مثل الطمأنينة والعدل) تحتاج إلى عمل حكومي. ولا أعني بالمحافظة محافظة المخلفات التأريخية بالدرجة الأولى الاهتمام بمصادر الثروة الطبيعية في العالم. (لقد استعمل الناس طوال

المئة والخمسين سنة الماضية المواد الأولية للصناعة والأراضي التي تعتمد عليها الزراعة) استعمالاً كبيراً مما أفقدها كثيراً من قابلياتها الإنتاجية. وكان الضغط على النفط كبيراً من حيث الصناعة. إن كمية النفظ في العالم (وإن لم تكن معروفة) إلاّ أنها محدودة. وقد وصلت الحاجة للنفط بحيث أنها قد تؤدي إلى حرب عالمية ثالثة. وإذا حدث وقلّت كميات النفط في العالم فينبغي أن تحدث تغييرات في طراز حياتنا لكي نستغني عنها. وإذا حاولنا أن نستغني عن قلّة النفط باستعمال النشاط الذري فذلك يؤدي حتماً إلى استنزاف كميات كبيرة من الأورانيوم والثوريوم. إن الصناعة كما هي اليوم تعتمد أساسياً على الثروة الطبيعية. ولا يمكن أن تستمر الثورة الطبيعية إلى ما لانهاية لأن كمياتها محدودة وقابلة للاستنزاف.

يقول بعض الثقات بأن إمكانية استنزاف الثروة الطبيعية المتعلقة بالزراعة لمحتملة الوقوع. وقد بيّن أحد الكُتاب أخيراً في مؤلف سمّاه الطريق إلى البقاء بأن الأساليب المتبعة في فلاحة الأرض وفي زراعتها في كثير من الأقطار في الوقت الحاضر من شأنها استنزاف خصوبة الأرض. وما ظهور منابع الغبار من أمريكا وفي أقطار كثيرة من العالم إلاّ ظاهرة واضحة من هذا القبيل. وبعد حساب دقيق بيّن هذا البحاثة بأن سكان الأرض سيزداد خلال الخمسين سنة القادمة وسيقل مقدار الأغذية الكافية إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة لبعث خصوبة الأرض من جديد. ولا يمكن أن تصبح الإجراءات المتعلقةِ بتحسين التربة منتجة إلاّ إذا ساهمت فيها الحكومة والمؤسسات الاجتماعية. غير أن تدخل

الحكومة في مثل هذه الأمور قد يعرضها للنقد من جانب كثير من الهيئات. إن هذه المشكلة لم تعالَج كثيراً فينبغي أن يهتم بها الناس كافة خصوصاً أولئك الذين يسعون إلى أن يتجنب العالم خوض حرب عالمية جديدة. فالحرب الحديثة (حتى وإن أدت إلى تخفيف أثر قلّة الطعام) حرب مبيدة أكثر هدماً من سابقاتها. قد تكون مشكلة إصلاح الزراعة من أهم مشاكل الحكومة في المستقبل القريب، إذا كانت اتقاء وقوع الحرب ممكناً.

لقد تكلمت عن الطمأنينة والعدل والمحافظة من حيث هي وظائف أساسية من وظائف الحكومة ولا يمكن معالجتها معالجة ناجعة إلاّ عن طريق الحكومة. ولكن للحكومة وظائف أخرى بجانب العدل والطمأنينة والمحافظة. إلاّ أن تلك الوظائف يمكن أن تساهم فيها الهيئات الخاصة غير الحكومية كما يساهم الأفراد فيها. غير أن الحكومة ينبغي أن تلعب دوراً أساسياً في هذا الصدد. هذا إلى أن هناك أشكالاً من النشاط الفردي تميل نحو الفوضى والإجرام لذلك لا ينبغي أن تتساهل الحكومة تجاهها. كما أن هناك أنواعاً أخرى من النشاط الفردي (مثل الاختراعات) يجب على الحكومة أن تشجعها. ولكنّ هناك نشاطاً واسعاً لا يمكن معرفة طبيعته مقدماً قبل أن يستعمل. ويتوقف نفعه أو ضرره على الغاية من استعماله. وعلى هذا ينبغي دائماً تشجيع النشاط الفردي وتوجيهه توجيهاً اجتماعياً نافعاً.

إن محاولة الدولة جعل الأفراد متشابهين في التفكير والعواطف تكون نافعة أحياناً وضارة أحياناً أخرى. تتوقف منافع ذلك أو مضاره على أسلوب توجيهه وعلى نتائجه الاجتماعية.

لقد كان في فلورنسا قبل مجيء موسوليني نظام خاص يتعلق بالسير يختلف عن الأنظمة المتبعة في الأجزاء الباقية من إيطالية. وعلى هذا كانت محاولة موسوليني لتغيير ذلك وتوحيده مع الأجزاء الباقية من إيطالية نافعة ومنتجة. غير أن محاولة موسوليني تقييد حرية التفكير عند الإيطاليين كافة كانت محاولة هادمة وغير نافعة. إن تشجيع الأفراد على التفكير والمنافسة أمر من الأمور التي تؤدي إلى تقدم المجتمع. وعلى هذا ينبغي أن نشجع التنويع في الأمور العقلية لكي يؤدي إلى ذلك التقدم العلمي والاجتماعي. وإذا كانت هناك منافسة عقلية فينبغي توجيه الأساليب المستعملة لتحقيقها لا أن تلجأ الحكومة إلى القتل أو الاغتيال أو السجن للتخلص من الآراء التي لا تتفق وآراء الحُكام. ينبغي أن يسلك طريق الإقناع العلمي في مثل هذه الأمور. لقد أدت المنافسة العلمية والفنية المستمدة من نشاط الأفراد في بعض الدول الغربية (مثل إيطاليا أيام النهضة وألمانيا أثناء القرن الثامن عشر) إلى تقدم فني وعلمي باهرين. ولكن عندما تصبح الدولة كبيرة كما حدث ذلك في روسية تتضاءل المشاريع الفردية ويتغلب عنصر المحافظة على عنصري الإبداع والتغيير وتميل الدولة إلى الضغط على حرية الأفراد. لعل الفنانين والكُتّاب في الوقت الحاضر هم الطبقة الوحيدة التي تتمتع بالإبداع الفردي. ويتضح ذلك كثيراً في الولايات المتحدة. فعندما كانت في كاليفورنيا سمعت بأن رجلين اختيرا لتفيهم العالم وضع العمال المهاجرين في تلك الولاية. وكان أحد هذين الرجلين كاتب روايات عالج الموضوع عن طريق كتابة الروايات.

بينما كان الثاني مدرساً في إحدى الجامعات فتطرق إلى ذلك الموضوع عن طريق البحث الجامعي. لقد كان الأول أكثر نجاحاً من الثاني ذلك لأقبال كثير من الناس على قراءة ما كتبه دي هذا الحقل. ولكن مع هذا فنشاط الكاتب يتعرض إلى الخطر إذا كانت أساليب النشر بيد الدولة كما هي الحال في روسيا إذ لا تنشر الحكومة إلاّ ما يوافقها.

يستطيع المشتغلون بالعلم (كما بيّنت في الفصل (أن يشتغلوا مستقلين عن الدولة كما يفعل الكُتّاب. لم يعمد كافيديشي ولا فارادي ولا مندل على الحكومة والمؤسسات الاجتماعية في بحوثهم. ولم يتمتع دارون بتأييد الحكومة إلاّ فيما يختص ببعض أسفاره. ولئن صدق ذلك في الماضي فإنه من الصعب أن يحصل في الوقت الحاضر ذلك لأن معظم البحوث تحتاج إلى أموال طائلة وإلى وسائل وأبنية وأدوات كثيرة. وإذا لم تساهم الحكومة في ذلك أو الجامعات أصبح القيام بها من أشق الأمور. وإذا تدخلت الحكومة صعب كثيراً تعيين الأفراد الذين تجب مساعدتهم في أبحاثهم. فإذا ساعدت الحكومة الطبقات المتعصبة والرجعية فإن ذلك يشل حركة تقدم المجتمع ويقتل روح البحث العلمي كما حدث ذلك في القرون الوسطى.

إن الإصلاح السياسي الحديث لا يتم (في الدولة الدمقراطية) إلاّ عن طريق تكوين رأي عام يؤآزره. فينبغي على الفرد أن يقنع الحزب السياسي الذي ينتميَ إليه لأهمية آرائه السياسية في الإصلاح ومن ثم ينبغي نشر تلك الآراء بواسطة الحزب على

الناخبين. أي أن الرأي الفردي ينبغي أن يؤيده الحزب فيصبح رأي الحزب نفسه ومن ثم يعمل الحزب على إقناع الناخبين على اعتناقه لكي يؤيدوا ذلك الحزب في الانتخابات وإلاَّ أصبح ذلك الرأي غير ذي أهمية تطبيقية. ولكن إذا كان الفرد (صاحب الرأي في الإصلاح) يشغل مركزاً حكومياً هاماً أصبح سهلاً عليه تطبيق ما يراه صالحاً من الآراء دون الحاجة إلى الالتجاء إلى حزب سياسي من الأحزاب. إن الإصلاح السياسي في الدول الدمقراطية إنما يأتي بالتدريج وعن طريق التشريع.

إن الميل في المجتمعات الحديثة متجه نحو استثمار النشاط الفردي بواسطة المؤسسات الاجتماعية بما فيها الحكومة. وكل نشاط فردي أعزل تنعدم قيمته العملية إذا كان اعتماده متعلقاً بجهود الفرد وحده. وكلما كانت الجماعة صغيرة الحجم أصبح مجال تأثير الفرد على الآخرين كبيراً. وكلما كبر حجمها قلَّ إثراء الفرد فيها إلاَّ آراء أولئك الأفراد البارزين. وعلى هذا يمكننا أن نقول بأنه كلما كبر حجم المجتمع وتعقدت مصالح أبنائه ضؤول أثر الفرد الاعتيادي في توجيه السياسة العامة للدولة. هذا إلى أن أثر الفرد الاعتيادي في هذا الشأن (إن وجد) لا يتم إلاَّ بطريقة غير مباشرة ـ أي عن طريق ممثليه في البرلمان. وكثيراً ما لا يعتبر أولئك الممثلون بأمانة وإخلاص عن آراء الناس الذين انتخبوهم وبذا تكون بعض تصرفاتهم غير دمقراطية.

وعلى هذا فالحاجة ماسة (في المجتمعات الدمقراطية) إلى شيء كبير من الانسجام بين حرية الفرد وبين تدخل الحكومة وتوجيهها الصالح لذلك النشاط. وعلى هذا فالسيطرة المركزية

مهمة بقدر أهمية الحرية الفردية. غير أنه يمكن تحقيق السيطرة الحكومية عن طريق تركيز السلطة في المركز بل بواسطة توزيع سلطة الدولة بين هيئات مختلفة جغرافية وصناعية وثقافية على شرط أن تكون السلطات المعطاة لتلك الجماعات مستمدة من الشعب وعاملة على إسعاده. إن هذه الجماعات تحتاج (لكي تقوم بواجباتها) إلى مسالمات مالية لتنفيذ خططها وعلى السلطة المركزية إذن واجب مؤآزرتها في هذا الصدد. ويتوقف مدى تلك المؤآزرة ونوعها على الأحوال الداخلية والخارجية لذلك المجتمع.

لا تخلو فكرة تجريد الجماعات المختلفة من سلطاتها من أضرار كثيرة. إنني أؤمن بضرورة إعطاء الجماعات الصغيرة جميع السلطات الممكنة التي تجعلها عنصراً متعاوناً مع الحكومة في نشر الأمن والطمأنينة بين الناس. أنني أرى أن يكون هناك تدرج في كمية السلطة المعطاة لكل جماعة حسب حجمها وأهميتها فيما يختص في شؤونها الداخلية ـ تتدرج من السلطات المحدودة للمجالس القبلية حتى تصل إلى السلطات الواسعة إلى الحكومة العالمية. إن وظيفة الحكومة العالمية هي منع الحرب وينبغي إذن أن تكون لها السلطات الضرورية كافة لتحقيق هذا الهدف. ويتضمن هذا احتكار القوات المسلحة وسلطة عقد المعاهدات وتعديلها وحق الفصل في المنازعات بين الدول. غير أن الحكومة العامة لا ينبغي أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء إلاَّ فيما يختص بمراقبة تطبيق المعاهدات. أما الحكومات الإقليمية فينبغي أن تترك مجالاً كبيراً للمجالس

المحلية فيما يختص بتصريف شؤونها الداخلية. وتترك هذه المجالس بدورها مجالاً للمجالس الأقل سعة وهكذا.

لكل مؤسسة (سواء أكانت جغرافية أم ثقافية أم متعلقة بالفلسفة السياسية) نوعان من العلاقات: تلك المتعلقة بأعضائها (وتدعى بالعلاقات الداخلية). أما النوع الثاني فهو العلاقات الخارجية التي تتعلق بالمؤسسات الأخرى. ينبغي أن تترك العلاقات الداخلية لقرارات الأعضاء أنفسهم. أما العلاقات الخارجية فإذا لم يكن بالاستطاعة حلها بطريقة ودية بواسطة المفاوضات بين الطرفين المتنازعين فينبغي عرضها على سلطة محايدة. ولا ينبغي أن يشذ عن ذلك شيء.

لا ينبغي أن نتخوف من الاختلافات بين الدول طالما لا تؤدي تلك الخلافات إلى اعتداء. فإذا عاش الإنسان لمدة ما في قطر غريب يستطيع أن يدرك بعض سيئات قطره. يحدث هذا بغض النظر عن نوع القطر الذي ينتمي المرء إليه. ويصدق الشيء نفسه على الأقسام المختلفة في القطر الواحد وعلى الاختلافات بين المهن المختلفة. فينبغي إذن أن يقضي على فكرة وضع الناس في قوالب متشابهة من حيث الثقافة والسلوك. لقد اعتمد التطور البايولوجي على الاختلافات الموروثة عند الأفراد والجماعات. فإذا جرت المحاولة للقضاء على تلك الفروق أصبحت الحياة جامدة، وتعرض الإنتاج الفردي والإبداع إلى الركود.

فينبغي دائماً تشجيع الأفراد لإبراز مواهبهم الموروثة ومن ثم توجيه تلك المواهب توجيهاً نافعاً للمجتمع. أما إذا لم توجه قوى

الأفراد توجيهاً اجتماعياً نافعاً صعب القضاء على الأنانية الفردية ـ ذلك لأن لدى الإنسان ميلاً غريزياً للاحتفاظ بما يكسبه وكثيراً ما يحاول المرء كسب ما يحصل عليه الآخرون. ولدى كل فرد من الناحية الثانية دوافع إبداعية يحاول بواسطتها أن يقدم للعالم أموراً جديدة لم يسبقه إليها أحداً. فما قدّمه شكسبير ونيوتن من المكتشفات وما يفعله بعض القرويين فيما يختص بالبناء كلها أمور من هذا القبيل.

يستطيع الأفراد تملك الأمور المادية أكثر من تملكهم للأمور العقلية التي تصبح ملكاً مشاعاً لغيرهم من العلماء. هذا إلى أن تملك الأمور المادية يؤدي إلى حرمان الآخرين من التمتع بتلك المادة بينما يشارك الشخص الذي ينظم شعراً أو يتذوقه غيره التمتع بذلك. ثم إن الشاعر بالإضافة إلى ذلك لا يقف حائلاً بين الآخرين ونظم الشعر أو تذوقه. لعل ذلك هو السبب في المطالبة بتطبيق العدل الاجتماعي في تملك الأمور المادية. إن الشيء المهم فيما يختص بالأمور العقلية هو إعطاء الفرد الفرص الكافية للتعبير عن مواهبه. هذا إلى أن الدوافع التي تدفع الإنسان إلى القيام بعمل إبداعي (كنظم الشعر والرسم والاختراع) قلما تكون مادية. قليلون هم الشعراء والعلماء الذين استهوتهم المكافئات المادية فيما يتعلق بإنتاجهم. وقد ذهب كثير من العلماء والمصلحين الاجتماعيين (ضحايا للتعصب الذميم) دفاعاً عن آرائهم الإبداعية. ويعتبر سقراط أروع مثل لذلك. أننا نعتقد بأن سقراط لو خير بأن يعيش عيشة الأثرياء ويترك التبشير في آرائه لما رغب في العيش. أننا نستطيع القول من الجهة الثانية بأنه كلما

تركزت السلطة بأيدي الأقلية من المتنفذين ذوي الميل للإبداع عند الكثيرين. هذا إلى أن تركيز السلطة يؤدي عادة إلى السيطرة على وسائل النشر. وهذا يؤدي إلى عدم السماح للآراء المعارضة للتعبير عن نفسها. وإذا عبرت بعض تلك الآراء عن نفسها تعرض أصحابها للخطر. إن مثل هذه الحالة تشل حركة تقدم المجتمع. على أنها ليست ضارة على إطلاقها. وإنما يتوقف نفعها أو ضررها على نوعها ومداها. فالسيطرة على النوازع الخبيثة والآراء المخربة نافعة وضرورية لأنها تفسح المجال للبناء الاجتماعي المنتج. ولكن مع هذا لا ينبغي التعرض للدوافع الفردية غير الضارة بل يجب أن يفسح لها المجال للنمو والازدهار على شرط أن توجه توجيهاً اجتماعياً صالحاً. ولكي يتحقق ذلك يلزم على الدولة أن تقوم بقسطها في التنظيم. ولا ينبغي أن يعيقها احتجاج بعض ذوي الأغراض بل يجب أن توجهها مصلحة الجميع.

الفصل السادس

الفرد وعلاقته بمقاييس المجتمع من الناحيتين السياسية والخلقية

سأحاول في هذا الفصل أن أبحث العلاقة بين المقاييس الخلقية والسياسية للمجتمع وبين سلوك الفرد فقط ـ والعلاقة بين سلوك الفرد ومقاييس المجتمع في السياسة والأخلاق علاقة وثقى. يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر فيه ما دام الإنسان على قيد الحياة. إن الشيء المهم في هذا الصدد (من حيث تقدم المجتمع) هو نوع ذلك التأثير لا مجرد حدوثه. وكلما كان ذلك التأثير نافعاً (للفرد وللمجتمع) كان ذلك عاملاً من عوامل التقدم. يتأثر سلوك الفرد كثيراً بثقافته. ومصادر تلك الثقافة كثيرة أهمها البيت ووسائل النشر والجامعات. إن هذه الوسائل كثيراً ما لا تعمل على تثقيف الفرد بل تحاول حقنه ببعض الآراء وتشل تفكيره. وما يجري في روسيا الآن دليل واضح على ذلك. فقد خضع رجال العلم والمفكرون مع مزيد الأسف لآراء طبقة من الساسة الجاهلين بأمور العلم ولا يمكن التخلص من الحالة المؤسسة هذه إلاّ عن طريق تحديد نشاط الساسة وعدم السماح لهم بالتدخل في شؤون العلم. إذ أن السياسيين قادرون (من

الوجهة النظرية) على قيادة الناس من الناحية السياسية ولا حق لهم أن يفرضوا آراءهم على الناس فيما يتعلق بالموسيقى والعلم والفلسفة. إن تدخل الساسة في مثل هذه القضايا أمر غير مرغوب فيه حتى ولو كانت معلوماتهم فيها غزيرة وأذواقهم رفيعة.

ليست الحرية شيئاً مطلقاً بل هي أمر نسبي فليس هناك إنسان مطلق التصرف في أعماله كافة. كما لا يوجد إنسان فاقد لمظاهر الحرية كافة. هذا من جهة ومن جهة أخرى تحتاج الحرية إلى درجة كافية من الثقافة وضبط النفس لتوجيه سلوك الأفراد. وضبط النفس أمر قد يتجلى في الانصياع إلى بعض قوانين المجتمع الذي يعيش المرء فيه بقدر ما يتجلى في خروج المرء على الفاسد منها. فالحرية إذن خروج على بعض الأنظمة وإطاعة لبعضها. هذه الظاهرة يؤيدها علماء الأنثروبولوجي. فقد اندثر كثير من التقاليد الاجتماعية التي كانا تعتز بها بعض المجتمعات (مثل أكل لحوم البشر) نتيجة لاحتجاجات خلقية صارخة قام بها بعض الأفراد. ولا يتقدم المجتمع إلاَّ عن طريق بعض الأفراد المصلحين الذين يثورون على الفاسد من تقاليده ويقترحون ما هو أصلح منها.

لا يهتم علم الأخلاق إذن بواجبات الفرد نحو الآخرين فقط (مهما كانت هذه الواجبات هامة) إذ ليس القيام بالواجب دائماً يجعل الحياة سعيدة. فهناك ميل لطلب المتعة الخاصة بالفرد نفسه. إن الإنسان وإن كان اجتماعياً بالطبع إلاَّ أنه فردي بالطبع كذلك. ودوافعه الفردية قد تكون نافعة للمجتمع وقد تكون ضارة به. فقد يندفع الإنسان نتيجة للحب فيعطف على الآخرين

ويساعدهم وقد يسوقه البغض إلى الاعتداء عليهم. ولا تكون الحياة سهلة الاحتمال إلاّ إذا كان هناك مجال لشعور الفرد ولدوافعه للبروز. قليلون هم الذي يجدون لذة في العزلة. ولا يمكن أن يكون الناس سعداء في مجتمع لا يسمح للفرد بحرية العمل والتفكير.

للسلوك الفردي النافع جانب آخر بالإضافة إلى احتوائه على الجانب الاجتماعي المتعلق بحسن معاملة الناس. هذا الجانب هو الجانب الذاتي الذي يدفع الإنسان إلى البحث عن ملذاته الخاصة. والمسألة المهمة هنا أن لا يضحي الفرد بواجبه الاجتماعي طلباً للمتعة الشخصية أو بالعكس. بل يجب أن يوازن بين الاثنين. وأن يقلع عن اقتناص الملذات التافهة. فالواجب الاجتماعي إذن مهم بقدر أهمية المتعة الفردية. ولا ينبغي أن يضحي الإنسان بأحد الواجبين إلاّ عند الضرورة القصوى. إن الشيء الذي أحاول أن أقوله في هذا الباب قريب من الخلق المسيحي ولو أنه لا يعتمد عليه. إن أساس ذلك هو تضحية الملذات الزائلة في سبيل الحصول على نفع اجتماعي أكثر استمراراً وأعم فائدة منها. وتتضح هذه الظاهرة (عند المسيحيين) في الحث على إطاعة اللّه وحبه للتوصل إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان. والدافع الخلقي أمر قد لازَمَ كبار القادة الدينيين ومشاهير الفنانين والمخترعين والعلماء وساعدهم على التعبير عن دوافعهم الإبداعية والسمو بها. إن هذه العاطفة هي أساس ما يدعى بالواجب نحو اللّه. وهي متصلة بالعقيدة الدينية. غير أن واجب الإنسان يتعدى ذلك إلى واجباته نحو الآخرين ونحو

نفسه. وواجباته نحو الآخرين لا تقل أهمية عن واجباته نحو نفسه. هذان الواجبان (الفردي والاجتماعي) أمران متلازمان يصعب فصلهما. وكثيراً ما ينتج الفنان والعالم والمكتشف أموراً لها منافع اجتماعية كثيرة ولكن الدوافع التي ساقته إلى عملها إنما هي دوافع ذاتية تتعلق بقدراته وأولاعه الخاصة.

فلا ينبغي إذن تفضيل الدوافع الاجتماعية على الدوافع الفردية. إذ أن كل تقدم اجتماعي لا يتم إلاّ عن طريق الدوافع الفردية ـ وما أعمال الأنبياء والمتصوفين والشعراء إلاّ أمثلة على ذلك. إذ أنهم بأعمالهم الباهرة كانوا قد خالفوا الشائع من عقائد المجتمع وآرائه. وبثورتهم على ذلك لم يقوموا بواجبهم كما فهمه المجتمع الذي عاشوا فيه. بل فرضوا واجبات جديدة دفعوا بمجتمعاتهم للأخذ بها وللإقلاع عن غيرها. وقد تعرّض بعضهم نتيجة لذلك إلى شتى أنواع الاعتداء والتعذيب. ولكنهم بصمودهم خلّدوا أسماءهم وأعمالهم وقدّموا للعالم مُثُلاً عليا في الدين والعلم والفن.

فإذا كنا لا نريد أن تكون حياة الإنسان معتمة وجب الاعتراف بقيمته الذاتية وبالنفع الذاتي لأعماله. من المعلوم أن الأمور النفعية على نوعين: أمور نافعة بذاتها، وأمور نافعة لأنها وسائل لغايات خارجة عنها. إن كلا النوعين مهم في الحياة ولا يمكن الاستغناء عنه. والمشكلة الأساسية لا تتعلق بتفضيل أحدهما على الآخر بل تتعلق بمحاولة إيجاد التوافق بين الوسائل والغايات (أي بين الأمور النافعة لذاتها وبين الأمور النافعة لأنها تؤدي إلى نفع خارج عنها). غير أن إيجاد هذا التوافق ليس

سهلاً. ولعل الفشل في إيجاد مثل هذا التوافق هو الذي يميّز الشخص المتمدن عن الشخص المتوحش والراشد عن الطفل والإنسان عن الحيوان. إذ كلما تقدم الإنسان في الثقافة ازداد تبصره في العواقب وأصبح أكثر اهتماماً بكل الوسائل والغايات وربما اضطر إلى اتخاذ وسائل مزعجة للوصول إلى غايات نافعة. قد يتطلب التوسل بوسائل مزعجة لغرض الحصول على غايات سامية في المستقبل نضجاً عقلياً معيّناً ولما كان التفكير في العواقب صعباً (ويتطلب السيطرة على الدوافع الذاتية) فإن علماء الأخلاق يؤكدون على ضرورة القيام بالواجب لذاته.

فلا ينبغي إذن الاهتمام بالوسائل وإهمال الغايات ولا العكس. إذ أن إهمال أحدهما قد يعرّض المرء إلى أخطار جسيمة. فالشخص الذي ينفق الساعات في جمع المال ولا يهتم بأمر صحته وما أشبه قد يعرضه ذلك للابتلاء بكثير من الأمراض.

إننا كثيراً ما نتناسى بأن السياسة والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي أمور تتعلق بالوسائل لا بالغايات. أما اعتبارها غايات فأمر ناتج عن خداع المسؤولين من الإداريين والسياسيين. إذ ليس للحكومة بنظرنا سوى العمل المستمر على خدمة الأفراد. وعلى هذا تصبح جميع المؤسسات الاجتماعية وسائل لا غايات. وإذا ما اعتبرت الحكومة غاية بحد ذاتها سهل إخضاع الفرد لها. وصلاح المجتمع يتوقف على مدى استطاعة الحكومة خدمة كل فرد من أفراد شعبها وعلى هذا تصبح الحكومة وسيلة للحياة الطيبة التي يحياها الناس. إذ ليس للمجتمع أو الدولة وجود حقيقي قائم بذاته ومنفصل عن الأفراد.

إن تشبيه الدولة بالكائن الحي لتشبيه لا يخلو من أخطار إذا لم يعيَّن المقصود بهذا التشبيه. فالناس والحيوانات كائنات حية. أي أن تأثر أحد أجزائها بأي مؤثر خارجي يعرّض الكائن كله لذلك التأثير. فإذا كنت مصاباً بألم في أحد أسناني أو أصابعي فإن جسمي جميعه يشعر بذلك الألم. ذلك لارتباط الجزء المؤلم بسائر أعضاء الجسم. أما اعتبار المجتمع كائناً حياً (بالمعنى السالف) فلا أساس له من الصحة ذلك لأن تعرّض أحد أكواخ الفلاحين للحريق مثلاً قد لا تتعدى أضراره ذلك الكوخ نفسه. فالإنسان بمجموعه يتعرض للخطر عندما يتعرّض أحد أجزائه لذلك الخطر. بينما لا يتعرض المجتمع كله لخطر يداهم بعض أفراده. فلا يصيب المجتمع (إن خيراً وإن شراً) إلاّ ما يصيب جميع الأفراد الذين يكونونه، والقول بأن مصالح المجتمع أسمى من مصالح الأفراد الذين يكونونه قول غير صحيح على إطلاقه. وهو يؤدي بصورةٍ مباشرة إلى الدكتاتورية.

يعتقد بعض الفلاسفة ورجال السياسة بأنه ينبغي أن يكون للدولة كيانها الخاص بغض النظر عن موقفها تجاه المواطنين. إنني لا أستطيع قبول هذا الرأي. إذ أن الدولة بنظري شيء معنوي ليس له وجود حقيقي. أما في الدول الدكتاتورية فتقرن الدولة عادة بالأقلية السائدة من الساسة وكبار الإداريين. وخضوع الفرد للدولة يعني خضوعه لهذه الأقلية. ولا يخفى ما في ذلك من اعتداء على حرية البلاد لا يقبله المؤمنون بالدمقراطية.

لقد مرّ معنا تفنيد النظرية الدكتاتورية في السياسة أما الآن

فنود أن نفنّد النظرية البايولوجية. تدعى هذه النظرية بالنظرية البايولوجية مع العلم بأن كثيراً من البايولوجيين لا يعتقدون بصحتها. هذه النظرية متعلقة بنظرية التطور التي تفرض بأن تنازع البقاء قد أدى بالتدريج إلى جعل الكائنات الحية أكثر تعقيداً كلما ارتقت سلم التطور حتى تنتهي إلى الإنسان وهو أعقدها. ويقولون إن استمرار الحياة على هذا الأساس هو الهدف الأسمى لبقاء النوع. ولما كان استمرار الحياة هو الهدف أصبح كل شيء يساعد على تحقيق ذلك الهدف شيئاً صالحاً ينبغي تشجيعه. أما الأمور التي تعرقل البقاء فهي صالحة ينبغي القضاء عليها وكلما كثر عدد الأفراد المستمرين على البقاء كان ذلك النوع أرقى من غيره من الأنواع الحية. إنني لا أرى مبرراً لقبول هذا الرأي الميكانيكي الحسابي. إذ أنه من السهل أن يجد الإنسان قطعة صغيرة من الأرض يسكنها عدد من النمل أكثر من عدد سكان الأرض. وعلى هذا لا يصح أن نستنتج بأن النمل أكثر رقياً من الإنسان. إنني شخصياً أعتبر الأقلية المثقفة من الناس أرقى من مجموعات كبيرة من القطعان البشرية التي تعيش في الفقر والجهل والمرض.

هذا لا يعني انتفاء أهمية البقاء واستمرار الحياة. ولكنه يقول إن لنوعية الأفراد الذين كتب لهم البقاء أثراً بالإضافة إلى كمية ذلك النوع. هذا إلى أن البقاء لا يتحقق في الوقت الحاضر إلاّ بواسطة حماية الحكومة للأفراد. غير أن الحكومة قد تسيئ إلى الأفراد تحت ستار حمايتهم.

وهنا يعود بنا الأمر ثانية إلى بحث أهمية إيجاد التوافق بين سيطرة الحكومة وحرية الفرد.

وإذا حاولت أن ألخص المبدأ الأساسي الذي حاولت عرضه في هذا الكتاب فأقول بأن هناك نزاعاً طويلاً بين أنصار التقارب الاجتماعي للأفراد وبين أولئك الذين يهتمون بالحرية الفردية. ويرجع تاريخ هذا النزاع إلى زمن اليونان. إني أميل إلى الاعتقاد بأن في كلا الرأيين عنصراً من عناصر القوة ونقطة من نقاط الضعف. والمشكلة كما سبق وذكرت ليست مشكلة أيهما أهم (الحرية الفردية أم التنظيم الاجتماعي) بل هي مشكلة إيجاد التوافق بينهما. وقد مرّت البشرية في تأريخها الطويل متأرجحة بين المبدأين. غير أن البشرية لم تشهد انسجاماً بين المبدأين. فقد حاول أنصار التنظيم الاجتماعي إخضاع الفرد للدولة. وعاكسهم أنصار الحرية الفردية إلى نبذ التنظيم. إننا ندعو إلى إيجاد الصلة الوثيقة بين المبدأين. فالحرية بلا تنظيم إنما هي فوضى. والتنظيم الذي يسلب الناس حرياتهم ليس تنظيماً علمياً وإنما هو تحكم في رقاب الناس.

تميل السلطة الحكومية عادة إلى الحد من نشاط الفرد. هذا من جهة ومن جهة أخرى يصبح الفرد (إذا ما ألف هذا النوع من السلطة) مستعداً لقبول ما تفرضه السلطة عليه من آراء في السياسة والاجتماع وبذا يفقد الشخص ثقته بنفسه ويستسلم لقوى خارجة عند تدفعه أنّى تريد وتكون شدة هذا التأثير عند الأفراد الاعتياديين أكثر منها عند المثقفين ويتضح ذلك في حالة الأزمات أو في وقت تظهر فيه مشاكل معقدة وكثيرة.

لقد أصبح العالم ضحية للمبادئ السياسية الجامدة مثل الرأسمالية والشيوعية. إنني أؤمن بخطل هذين النظامين ولا أظن

أن فيهما العلاج الشافي لحلّ مشاكل المجتمع الحاضرة. تضع الرأسمالية القوة بيد أناس قليلين. أما الشيوعية فإنها تضع تلك القوة في أيدي أناس قليلين أيضاً ولكنهم من طبقة غير الطبقة الرأسمالية. نستطيع بمعاونة العلم (وبالتخلص من الاستعباد الفكري للشيوعية وللرأسمالية) أن نجعل المجتمع أكثر تقدماً مما هو عليه. من المؤسف حقاً أن لا تكون نظرياتنا السياسية علمية. إن لهذه النظريات (غير العلمية) سلطاناً لا يقهر على الأفراد والجماعات.

لم تتخلص الإنسانية منذ وجودها على الأرض من ظاهرة سيطرة بعض الأفراد على غيرهم. يجد الأقوياء لذة في السيطرة على الضعفاء. وقد كانت الظاهرة واضحة على عهد اليونان فيما يتعلق بالأحرار والعبيد. إن ظهور المبدأ الدمقراطي الحديث يتنافى والاستغلال الفردي أو الاجتماعي. إنه يدعو إلى وجوب الاهتمام بالفرد اهتماماً شاملاً وإلى ضرورة نشر العدل والحرية والمساواة بين أفراد الشعب جميعاً. والدمقراطية التي أدعو إلى تحقيقها دمقراطية فردية اجتماعية. تشجع الفرد وتفسح له المجال لإبراز مواهبه. وهي كذلك تشجع التعاون وتبشر بالمساواة بين الناس بغض النظر عن فروقهم الفردية واختلافاتهم في الجنس واللون واللغة. إنها تحترم الفرد وتربيه على الاعتزاز بكرامته والشعور بمسؤولياته الأدبية والمادية. وهذا بدوره يؤدي إلى تقدم المجتمع. فالمجتمع المتقدم ما هو إلاّ عدد من الأفراد الشاعرين بمسؤولياتهم. إن التنظيم الحكومي بشكله الحاضر لا يسمح لأفراد من هذا القبيل بالنمو. إنني لا أدعو إلى نبذ التنظيم في

سبيل الحرية الفردية ولكنني أدعو إلى إيجاد نوع جديد من التنظيم لا يتعارض وحرية الفرد. إن الغرائز التي كانت تتعلق بالصيد والمقاتلة تحتاج إلى منافذة جديدة للتعبير عن نفسها. وإذا لم تتوفر هذه المنافذ فإن تلك الغرائز ستتحول إلى كره وبغضاء.

إنه من المستطاع إيجاد منافذ لهذه الغرائز، فيمكننا أن نعوّض عن المقاتلة بالمنافسة والمباراة وبالبحث العلمي المنظم. إن الشيء الذي ينبغي أن نهتم به في هذا الصدد هو ألا نهمل هذه الغرائز أو نعتبر وجودها شراً. إن وجودها هو مصدر نشاط الإنسان، ويتوقف خيره أو (شره) على الاتجاه الذي يسير فيه. وعلى هذا ينبغي أن نهيء الظروف الثقافية الصالحة لتربية هذه الغرائز تربية منتجة.

لقد تعرّض النمو البشري إلى نوعين من أنواع الشقاء: (١) الشقاء الناتج عن الطبيعة وهو خارج عن سلطة الإنسان، (٢) الشقاء الناتج عن سوء معاملة الناس لبعضهم. لقد كان النوع الأول أكثر انتشاراً من الثاني عندما كان الإنسان يعيش عيشة بدائية. وقد تعرّض النوع الإنساني نتيجة لذلك، لكثير من الآلام والمصائب. فالنوع الإنساني من الأنواع الحيوانية القليلة العدد. ولم يمكن استمرار بقائه على الحياة مضموناً إذ لم تزوده الطبيعة بخفة الحركة التي يستطيع بواسطتها الهروب من المخاطر أو التخلص من الحيوانات المفترسة. غير أن الإنسان يمتاز على سائر الحيوانات بميزتين: (١) استقامة قامته مما سهّل حركة يديه وأصابعه خصوصاً الإبهام، (٢) ذكاؤه الذي جعله قادراً على نقل الخبرة من جيل إلى جيل. تمكّن الإنسان تدريجياً، بواسطة هاتين

الميزتين، أن يحافظ على بقاء نوعه. فزاد عدد أفراد النوع الإنساني أكثر من أنواع الحيوانات الأخرى لا سيما اللبائن. ولكن الطبيعة استمرت في اعتدائها عليه عن طريق الفيضان والمجاعات والأمراض وما أشبه. لقد أدى تقدم الإنسان في العلم إلى استعباد الطبيعة بعد أن كان الإنسان مستعبداً لها. غير أن الإنسان في الوقت الحاضر وإن لم يتخلص تماماً من المجاعات والأمراض وما شاكلها إلاَّ أنه يستطيع أن يتقي وقوعها. وإذا وقعت سهل عليه التغلب عليها. إن العدو اللدود للإنسان في الوقت الحاضر هو جهله بأساليب العيش الاجتماعية المشتركة. فلو أننا عرفنا كيف نعيش بسلام وتعاون لما أعوزنا التغلب على كثير من المشاكل الطبيعية والاجتماعية. لقد وضع العلم الحديث بأيدينا سلاحاً نستطيع عن طريقه استذلال الطبيعة وتوجيهها للمنافع الإنسانية.

والخلاصة: لم تتلاش الشرور الناتجة عن سوء معاملة الناس لبعضهم بالدرجة التي تلاشى فيها خضوع الإنسان للطبيعة. فلا زالت هناك حروب واعتداءات وما شاكلها. ولا زال بعض الناس يثرون على حساب الآخرين. ولا زالت القوة والبطش عاملين يتحكمان في رقاب كثير من الناس. كل هذا يمكن التغلب عليه إذ ليس هناك في طبيعة الإنسان ما يحتم وجود مثل هذه الشرور. إنها ناتجة بالدرجة الأول عن فساد النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس. إن نشر العدل والطمأنينة بين الناس لعامل كبير في استقرار حياتهم. وإذا استطعنا أن نزيل الخوف والفقر والجهل والمرض سهل على

الناس أن يعيشوا متعاونين. ينبغي أن نوجه أساليبنا العلمية التي أدت إلى تغلبنا على الطبيعة (بواسطة الاكتشافات والاختراعات وتقدم الفن والتأليف وما أشبه) إلى التغلب على الشرور الاجتماعية المنتشرة بين الناس في الوقت الحاضر. لقد جعل كل من العلم والصناعة كثيراً من أوجه حياتنا الحاضرة أفضل مما كانت عليه في الأجيال السالفة. فينبغي أن نشجع كل ما من شأنه جعل الحياة الإنسانية أسمى مما هي عليه. إننا لا نستطيع خلق عالم متقدم عن طريق تخويف الناس وإذلالهم بل عن طريق تشجيعهم وتربيتهم على الاعتزاز بحرياتهم الفردية وجعلهم غير هيابين إلاً من القضايا غير العادلة. إن في العالم الذي تعيش فيه لأمكانيات كثيرة تجعله أكثر سمواً ما هو عليه. وهناك أيضاً إمكانيات لجعله أشقى مما هو عليه. لقد عرفنا كيف نستذل قوى الطبيعة ولكننا لا نعرف كيف نتغلب على قوانا الذاتية. لقد اهتم علماء الأخلاق كثيراً في موضوع تهذيب النفس دون أن يعرفوا طبيعة النفس ذاتها. غير أني حاولت في هذا الكتاب أن أوضح طبيعة النفس كما أراها من حيث علاقتها بالمجتمع.

محتويات الكتاب

هذا الكتاب

إن المشكلة الأساسية التي سأحاول بحثها هي كيفية إيجاد الصلة بين حرية الفرد التي هي إحدى مستلزمات التقدم وبين التعاون بين الأشخاص الآخرين الذي لا يستطيع الفرد بدونه أن يستمر على الحياة. سوف أحاول أن أبدأ دراستي هذه بعرض الدوافع الموروثة عند الإنسان، تلك الدوافع التي تجعل التعاون الاجتماعي بين الأفراد ممكناً.

